

إيمان القصيري

حتى الجدران بكت

دار الفنون
للنشر والتوزيع



رواية

حئی الجدران بکت



اسم الكتاب: حتى الجدران بكت

اسم الكاتبة: إيمان القصيري

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-446-260319

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2026م / 1448هـ



دار بسمة للنشر الإلكتروني



00212771814934



@ bassmabook



bassmabook@gmail.com



المملكة المغربية

كل الحقوق
محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. ولا يجوز بأي صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو كان، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلا بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

حَتَّى الْجُدْرَانُ بَكَتْ

رواية تراجمية واقعية

قصة عن الغدر والفقد والذاكرة

رواية

إيمان القصير





إهداء

إلى أمي مولودة...

إلى القلب الذي لم ينكسر رغم كل ما مرّ به،

وإلى اليد التي ظلّت تزرع القوة في داخلي حين كان كل شيء ينهار.

إلى أبي مصطفى...

الاسم الذي بقي حاضرًا رغم الرحيل.

وإلى الجدران...

إلى الشاهد الصامت على كل ما حدث،

إلى التي احتفظت بالأسرار حين صمت البشر،

وإلى التي بكّت دون أن يراها أحد.

إلى كل من عاش الغدر بصمت،

وإلى كل من حمل ذاكرة أثقل من عمره،

وإلى كل من لا يزال يبحث عن معنى الحياة وسط الخراب،

أهدي هذه الرواية.

مقدمة

ليست كل البيوت تُهدم حين تسقط جدرانها، وليست كل الأشجار تموت حين تجف أغصانها. فهناك أماكن تبقى حيّة في الذاكرة، تحمل بين حجارتها ضحكاتٍ رحلت، ودموعًا لم تجف، وأسرارًا دفنتها السنوات دون أن تمحو آثارها.

هذه ليست حكاية مزرعة فحسب، ولا قصة عائلة عابرة في سجل الزمن. إنها حكاية أرواحٍ أنهكها الفقد، وقلوبٍ مزقتها الخيانة، وأحلامٍ ذبلت كما تذبل الأشجار حين يُهجّر أصحابها.

في هذه الرواية، يصبح المكان شاهدًا على ما عجز البشر عن البوح به. الجدران تحفظ الهمسات، والنوافذ المكسورة تتذكر الوجوه التي غابت، والأرض تحتفظ بخطوات من مروا فوقها ثم اختفوا دون عودة.

إنها قصة عن الغدر حين يأتي ممن نحب، وعن الفقد حين يتحول إلى ظل يرافقنا في كل طريق، وعن الذاكرة التي ترفض أن تموت مهما حاول الزمن دفنها تحت ركام السنين.

وربما، حين تطوي الصفحة الأخيرة، ستدرك أن بعض الأماكن لا تبكي بالمطر، بل بذكريات من رحلوا عنها... حتى الجدران بكت.

مذكرات كرستيان

وُلدتُ سنة 1920 في بلدةٍ فرنسية هادئة تُدعى شارتر. كلُّ شيء فيها كان يبدو بسيطًا كلوحة ريفية؛ الحقول تُصافح السماء، والمطر يداعب وجوهنا الصغيرة كل فجر، ونكهة خبز أمي كانت تختصر الحب كله.

كنا ستة إخوة، أنا أصغر الذكور، وأمي كانت تحبني كما لو أنني النَّفس الأخير لطمانينتها. أبي، ذلك الرجل الذي لا يتحدث كثيرًا، كان فلاحًا صلبًا، يملك أرضًا واسعة تفيض بأشجار الزيتون، ومعصرةً صغيرة تنبض بعرقه، بالحياة.

لكنني كنت لا أفهم الحياة جيدًا حتى سُرقت فجأة. توفي أبي بعد مرض قصير، وكنت حينها في سن الثامنة عشرة. لم أعرف كيف أواسي أمي التي ارتدت السواد كما ترتديه الشجرة حين تُجردها العواصف من أوراقها.

سنتان فقط بعد وفاته، وصلني استدعاء التجنيد. كان قلبي ثقيلًا، يرفض الابتعاد عنها، لكن خوفي منها، وخوفي عليها، جعلاني أستمسلم.

دخلت القوات المسلحة الفرنسية، ولم أكن أدرك حينها أنني كنت أبتعد عن كل ما يُشبهني. كانت الليالي في الثكنة قاسية، موحشة، لا صوت فيها يشبه ضحكة أمي، ولا رائحة تُشبه رائحتها.

ثم جاء الخبر:

رسالة مرتجفة من أختي تقول:

"أمي مريضة جدًّا، ربما لا تصمد كثيرًا".

ارتعد جسدي، لم أفكر كثيرًا، هربت. لا أزال أذكر تلك الليلة الممطرة، والظلام يملأ السماء. عبرت النهر، ممسكًا بقطعة خشب، كأني أعبر بيني وبين نفسي. الجوع عَضَّني، الخوف نهشني، لكن حب أمي كان دافعي.

وصلت إلى شارتر عند الفجر، خطواتي متثاقلة، وقلبي يسبقني. حين اقتربت من بيتنا، سمعت بكاء شهقات أعرفها جيدًا، لا تأتي إلا في وداعٍ أخير.

رأيت أخواتي محنيات الرأس، والجارات يتهاמשن بأسى، وأخي غوجي، الذي عاد من المغرب فقط ليكون هنا، احتضنني بقوة، لكن نظراته كانت تخبرني: لقد تأخرت...

نظرت إلى الجسد المسجّى... كانت أمي، لكن الدفء الذي كنت أبحث عنه غادرها إلى الأبد.

حين أهيل التراب على جسدها، شعرت كأن جسدي هو من دُفن، لا هي.

منذ ذلك اليوم، تغيّر كل شيء.

سكنتني العتمة، خفّت ضوئي الداخلي، دخلت في اكتئاب طويل، لا أعترف به، لكنّه يقودني كل ليلة إلى وحدتي.

كنت أعيش بجسد هنا، لكن روحي ماتت هناك، في تلك اللحظة، مع أمي.

كنت أستيقظ في بيتنا القديم، لا لأعيش يومًا جديدًا، بل لأنتظر الليل من جديد.

البيت الذي كان يضج بصوت أمي صار موحشًا، باردًا، لا يجيب حين أنادي، ولا يرد حين أشتكي. كل زاوية فيه تذكرني بها، بكلامها، بضحكتها، حتى بصمتها.

غوجي، أخي الأكبر، حاول أن يكون سندي. جلس إلى جواري ذات مساء، حين كان الحزن يغلق كل النوافذ:

- كريستيان... لا يمكنك أن تبقى هكذا.

- وماذا تبقى مني؟ لقد ذهبت.

- نحن من تبقى. أنت وأنا. الحياة لم تنته، حتى إن خذلتنا.

- هي كل شيء، يا غوجي. لم أكن أستعد لفقدها.

- ولا أحد كان. لكني أعيش الآن في المغرب، أدير مزارع كما كان أبونا يتمنى... تعال معي.

حدّق في عينيّ، وفي صمتي، ثم أضاف:

ربما تجد نفسك هناك. ربما تُعيد ترتيب ما تهدّم داخلك.

لم أجب. كيف أرد على دعوة لا أعرف إن كنت أملك القوة لألبّيها؟

في تلك الليلة، فتحت صندوق أمي. وجدت منديلها المطرّز، ورسالة لم ترسلها لي أبدًا، لكنها كتبتها بخطّها المرتجف.

لم أكن أملك ما يربطني بعد، سوى قبرين؛ قبر أبي الذي فارقنا قبل عامين، وقبر أمي التي رحلت دون وداع.

صوت أختي الصغيرة وهي تبكي كل مساء كان ينهش قلبي، وكأن فقد الأم يختبرنا واحدًا تلو الآخر، دون رحمة.

غوجي لم يتوقف عن زيارتي تلك الأيام، كان يلحّ في حديثه عن المغرب، عن أرض جديدة، عن بداية مختلفة:

هناك، يا كريستيان، زيتون كثير كزيتون أبينا، وشمس تشبه تلك التي كانت تُرضي أمي عندما تُنشر الغسيل.

وهل يمكن أن أزرع نفسي في أرض لم أعرفها؟

بل يمكنك أن تُعيد غرس قلبك.

بعد أسابيع من الحزن، بدأت أرّتب حقائبي بصمت، لا بقناعة، بل بحاجة لأن أتنفس، لأن أهرب من جدران هذا البيت الذي صار يخنق بي.

أقفلت النوافذ، ألقيت نظرة أخيرة على الحديقة الصغيرة التي زرعتها أمي بالنعناع والياسمين... وسرت.

في محطة القطار، لم يكن معي سوى حقيبة صغيرة،
وصورة قديمة تجمعني بها وهي تحتضني كأني آخر شيء
جميل في هذا العالم.

كان الوداع صامتًا... تمامًا كموعده موتها.

كنت أعلم أن غوجي فقط يريدني أن أخرج من هذه
الكتابة، وأنا على يقين أن غوجي يحب شارتر أكثر مني.

صوت القطار كان كأنين بعيد، يشقّ صدري كما يشقّ
الريّح صمتَ الحقول. جلست بمحاذاة النافذة، أنظر إلى
خارجي وكأنه يخصّ غيري. كلّ ما كنت أعرفه عن نفسي
بقي هناك... في شارتر، بين قبرين وبیت بارد.

السفر نحو الجنوب، نحو المجهول، كان باردًا أكثر من
يناير، وأقصى من الفقد.

تذكرت وجه أمي حين كانت تناديني:

كريستيان، لا تنسَ أن تضع المنديل في جيبك...

كأنها تعرف أنني سأبكي يومًا بعيدًا عنها.

وصلت إلى مرسيليا، ومنها عبرت البحر نحو أرض لم أرها
من قبل، فقط سمعت عنها من غوجي.

كان في استقبالني، يتسم ابتسامة باهتة يخفي بها شفقتة.

أنت متعب، قال لي.

أنا مكسور، غوجي. كأن قلبي ما عاد يعرف كيف ينبض.
ذهبنا مباشرة إلى المزرعة. الشمس كانت حارقة، لكنها لم
تذب الجليد الذي ترسب في داخلي.
العمال يحرثون الأرض، يغنون بالأمازيغية، وأنا أنظر إليهم
كأنني ضيف في فيلم لا يخصني.
مرّت الليالي الأولى ثقيلة، كنت أستيقظ على حلم واحد:
أني عدت إلى بيت أمي، فأجدها حيّة، تخبز لي قطعة دافئة
من الخبز... فأستيقظ على فراغ.
في تلك الأرض الجديدة، بدأ كرستيان يذبل شيئًا فشيئًا...
لكنه لم يكن يعرف أن حروف اسمه ستتغير، وأنه سيولد
من جديد.
كان الليل في المزرعة أكثر صمًا من ليل شارتر.
هنا، لا صوت للساعة القديمة، لا خطوات أمي في
المطبخ، لا دفء إخوتي الصغار المتزاحمين في الغرفة.
الليل هنا يسكنني بدل أن أسكنه.
ذات مساء، جلس غوجي على الدرج الحجري أمام البيت،
دعاني ليشاركني فنجان شاي.
لا يمكنك أن تبقى هكذا، كريستيان.
هكذا؟

أنت لا تتحدث، لا تأكل، لا تضحك...

وماذا تريدني أن أفعل؟ ماتت أمي، وانتهت كل أشيائي معها.

نظر إلي طويلاً، ثم قال بهدوء:

أمك لم تمت، هي فقط انتقلت. لا تقتلها مرتين، مرة بالغياب، ومرة بالخدلان.

لم أرد عليه.

كان داخلي شبيهًا بمرآة مكسورة، كل ما فيه يعكس وجعًا ما.

مرّت الأيام، وأنا أعمل في المزرعة بصمت، أحمل المجرفة كمن يحمل ذنبه.

كلّ شجرة زيتون كنت أعني بها، كنت أراها كأنها من بستان أبي،

وكل امرأة عجوز تمر من السوق، أرى فيها ظل أمي، فأهرب.

وفي أحد الأيام، غبت عن العمل. بقيت في الغرفة، جالسًا أمام المرأة، أبحث عن ملامحي القديمة.

من أنت؟

كريستيان...؟ أم رجل فقد ظله؟

لم أكن أعرف.

كل ما أعرفه، أن الوجد صار هوية، وأن كل ما فيّ يئن
بصوت أمي.

في تلك الليلة، هطل المطر خفيفًا، كأن السماء تبكي على
قلبي المنكسر.

جلست قرب النافذة، والحنين يكتب على زجاجها أسماءً
لا تُنسى.

همست لنفسي:

"أمي، لم أودّعك... لم ألمس يدك الباردة... لم أخبرك أنني
لم أكن أريد الرحيل".

دخل غوجي، بهدوئه المعتاد، حاملاً كوبًا من الحليب
الساخن.

لا يمكنك أن تبقى سجينًا للحزن، كريستيان. الحياة لا
تنتظر أحدًا.

نظرت إليه، وقلت:

كيف تُشفى من أم؟

لا تُشفى، لكنك تتعلّم أن تمشي وأنت تُخبّئها في قلبك.

في الصباح التالي، أرسلني غوجي لمرافقته إلى مزرعة في
بلدة أولماس.

قال إنهم يبحثون عن مدير جديد...

قال إن التربة هناك خصبة، لكنها بحاجة إلى قلب يعرف كيف يزرع الأمل.

كان قلبي لا يزال معلقًا في تراب شارتر،

لكنني قررت أن أذهب، لا لأنني نسيت...

بل لأن الذكرى تحتاج أحيانًا إلى أرض جديدة لتنبث من جديد.

رحلت مع غوجي...

ولم أكن أعلم أن تلك الأرض البعيدة... ستشهد حياتي الجديدة.

عندما وصل كرستيان إلى المزرعة، لم يكن يتوقع أن تتغير حياته بتلك السرعة.

التقى بامرأة أمازيغية ذات شعر طويل مثل الحرير، ووشم تقليدي أمازيغي بين حاجبيها يعبر عن تراثها وتقاليدها. مطلقة، بطفلة اسمها مولودة، تبلغ عشر سنوات تقريبًا.

كان اللقاء الأول بينه وبين زهراء بسيطًا، لكنه بقي عالقًا في ذاكرته منذ اللحظة الأولى.

كانت تعمل بين أشجار التفاح بصمت طويل، تحمل فوق كتفها تعب سنوات كاملة، بينما تتحرك بهدوء امرأة

اعتادت أن تخفي حزنها داخلها. كان شعرها الأسود الطويل ينسدل فوق كتفيها، وعيناها تحملان نظرة حزينة رغم جمالها الهادئ.

أما كرستيان، فكان مختلفًا عن رجال القرية.

أجنبي جاء من فرنسا، يتحدث بسرعة بلغة لم تفهم منها زهراء شيئًا.

في البداية، كانت تكتفي بالنظر إليه بصمت كلما تحدث، بينما يحاول هو أن يشرح بيديه أو يبتسم حتى يفهمها ما يريد قوله.

كان يقول لها أحيانًا كلمات طويلة بالفرنسية، فتحدق فيه زهراء باستغراب قبل أن ترد ببرود:

لم أفهم شيئًا.

فيضحك كرستيان بخفة، ثم يحاول مرة أخرى بطريقة أبسط.

ومع مرور شهور، بدأ يتعلم الدارجة المغربية من أجلها.

تعلم أسماء الأشجار، وأدوات المزرعة، والكلمات البسيطة التي تقولها زهراء يوميًا. صار يكرر خلف العمال كلمات يخطئ في نطقها أحيانًا، فتضحك مولودة الصغيرة عليه، بينما تكتفي زهراء بابتسامة خفيفة تحاول إخفاءها.

كان يقول بفخر كلما تعلم كلمة جديدة:

تعلمت بعض الكلمات يا زهراء، ويبتسم.

ولأول مرة منذ سنوات، شعرت زهراء أن هناك شخصًا يحاول الاقتراب من عالمها بدل أن يجبرها على تركه.

صار كرستيان يساعدها أحيانًا في أعمال المزرعة، يحمل الصناديق الثقيلة، ويسير خلفها بين الأشجار وهو يحاول التحدث بلهجتها المكسرة، بينما تراقبه زهراء بصمت حذر.

لكن رغم ذلك، لم تكن تثق بسهولة في الوعود أو الأحلام. وذات مساء، جلسا قرب المزرعة بينما كانت الرياح تحرك أغصان الأشجار بصوت خافت.

بقي كرستيان صامتًا للحظات، ثم قال بهدوء:

"زهراء... أريد الزواج منك".

تجمدت ملامحها من المفاجأة، ونظرت إليه دون أن تنطق.

أكمل بصوت متردد قليلًا:

"لكن هناك أمر يجب أن تعرفيه... بعد الزواج سأعود إلى شارتر، إلى فرنسا. حياتي كلها هناك، ولا أستطيع البقاء هنا إلى الأبد".

شعرت زهراء أن الكلمات سقطت فوق قلبها بثقل غريب.

فرنسا...

ذلك العالم البعيد الذي لا تعرف عنه شيئاً، العالم الذي بدا لها أكبر من أحلامها وخوفها معاً.

خفضت عينيها نحو التراب بصمت، بينما بدأت الأسئلة تمزق رأسها: كيف ستترك بلدتها؟

كيف ستعيش وسط أناس لا يشبهونها؟

وماذا عن والدتها المسماة وردية؟ وماذا عن مولودة الصغيرة؟

لكن كرستيان اقترب منها أكثر وقال بصوت هادئ:

"لن أتركك وحدك... أعدك أن أبدأ معك حياة جديدة".

كان صادقاً في كلامه، أو ربما كان يظن أن الحب وحده يكفي ليهزم الغربة والخوف.

وبعد فترة طويلة من التردد، وافقت زهراء أخيراً.

تزوجت زهراء كرستيان بدون حفلة حزناً على أمه.

كانت العودة إلى فرنسا تحمل في قلبها آمالاً كبيرة، فقد ظنت أن الحياة ستمنحها أخيراً فرصة للهروب من الفقر والتعب، لكن الأحلام أحياناً تكون أكثر قسوة من الواقع نفسه.

حين وصلت إلى فرنسا، اكتشفت بسرعة أنها لا تنتمي إلى ذلك العالم البارد.

كل شيء هناك كان غريبًا؛

اللغة، الوجوه، الشوارع، وحتى الصمت.

كانت تشعر أن الجدران نفسها تنظر إليها كغريبة دخيلة،
وأنها تركت روحها معلقة هناك في المزرعة، بين أشجار
التفاح وتلال الأطلس.

في الأيام الأولى، حاولت أن تبدو قوية، لكنها كانت تنهار
كل ليلة بصمت.

أما كرستيان، فكان يراقب تغيرها بصمت عاجز.

لم يفهم كيف تحولت المرأة التي أحبها إلى شخص خائف
ومنطفيء بهذا الشكل.

وكان أصعب ما في الأمر...

أن زهراء لم تكن تكره فرنسا فقط.

بل بدأت تشعر أنها فقدت نفسها أيضًا.

ومع مرور الأيام، صار البيت باردًا رغم وجودهما معًا،
وصارت الوحدة تكبر بينهما بصمت ثقيل، بينما كانت
زهراء تقف أحيانًا قرب النافذة، تنظر إلى السماء البعيدة،
ثم تهمس بحزن موجه:

"حتى الغربة..."

لم ترحمني".

وأخيرًا، بعدما أدرك أن البقاء في فرنسا لن يكون لهما إلا المزيد من الألم، قرر كرستيان أن يعود معها إلى المغرب. رجعا إلى أولماس، إلى الأرض التي تنبض بالحياة، إلى قلوب الناس الذين يعرفون أصلهما، حيث يمكن لزهاء أن تجد السلام.

كانت عودة مليئة بالأمل، لكنها لم تخلُ من جراح الماضي التي لا تزال تنزف في أعماقها.

همست زهاء لنفسها وهي تراقب بلدتها:

"عدت، ولكنني لا أعلم ما الذي ينتظرنى هنا".

رد كرستيان بهدوء:

"المهم أنني هنا معك، مهما كانت الظروف".

هل ستقدر زهاء كل هذه التضحيات يومًا ما؟

كانت كلمات كرستيان كفيلة بأن تهدئ من روعها وشتات تفكيرها.

وهل سيجد كرستيان زهاء في السراء والضراء؟

عندما وصلت زهاء إلى بيت عائلتها في أولماس، هبطت من الحافلة وهي تتنفس هواء بلدها بشوقٍ عميق. من

نافذتها، كانت تراقب الجبال، والطرق الضيقة،
وتفاصيل الطفولة التي لا تموت، بينما قلبها يخفق
بمشاعر مختلطة بين الراحة والخوف.

هرعت إليها أمها وأخواتها بعناق دافئ، احتضنوا حنين
الغياب. حتى ابنتها مولودة، التي تبلغ من العمر عشر
سنوات، كانت هناك. نظرت إليها بعينين تتفاديان اللقاء،
عانقتها، لكنها لم تُغرقها في الحنان كما تفعل الأمهات
عادة، كأن شيئاً خفياً يحبس عاطفتها... ربما لأنها تشبه
والدها، ربما لأنها ذكرى من زواج انتهى؛ لأنه كان زواجاً
غصباً عن زهراء.

الرييبة

على لسان مولودة

جدّتي، وردية، كانت الحُضن الذي لا يسألني من أين
جئت،

وكان كرسّتيان... الأب الذي لم يُنجبني، لكنه أنجبني في
قلبه كل يوم من جديد.

لم يكن كثير الكلام، لكن صمته كان أكثر حنانًا من كلمات
كثيرة، وكانت ابتسامته الصغيرة تكفيني لأشعر أنني أنتمي
إلى هذا البيت، إلى هذا العالم.

بجانبه لم أشعر يومًا أنني ريبية.

كنت ابنته... كما يجب أن تكون الابنة:

محفوظة، مرئية، ومحبوّبة دون شرط.

كان يحنّ عليّ أكثر من أمي،

وهذا ما لم أجروّ على الاعتراف به حتى لنفسي.

الأبوة ليست دمًا يسري في العروق، الأبوة هي يد تُمدّ
عندما يخاف الطفل،

وصوت يقول: أنا هنا حين يختفي الجميع.

كرستيان لم يكن أبي بالنسب،

لكنه كان أبي بالفعل:

بالأمان الذي يزرعه في صدري، وبالحب الذي لا يحتاج إلى إثبات.

كنت في العاشرة من عمري، لكنني كنت أفهم أكثر مما يظن الكبار.

كنت أرى ما لا يُقال، وأشعر بما يُخفى خلف الوجوه الصامتة.

كنت ألاحظ كيف تحتبس أي مشاعرها تجاهي، كأن حضوري يوقظ في قلبها جرحًا لم يندمل. كنت ذكّري لرجل لم تختره،

وقصة لم ترغب أن تُعاد قراءتها.

أما كرستيان،

فكان يعوّضني عن كل نقص دون أن يشعرني أنني ناقصة.

لم يكن يُكثر من الكلام، لكن أفعاله كانت تقول لي كل يوم:

أنتِ ابنتي... حتى لو لم تقولي ذلك بصوتٍ عالٍ.

كان يجلس بقربي في صمت،

يصلح شعري، يراقب نومي، يضع يده على رأسي كأني وصية يخاف أن تضيع.

كنت أراه ينظر إليّ كما ينظر الإنسان إلى شيء أنقذه من الغرق.

كنت في العاشرة، لكن قلبي كان أكبر من عمري بقليل.

كنت أفهم أن كلمة أبي ليست مجرد صوت، بل اعتراف خطير.

في تلك الليلة، كنت مريضة.

الحمى جعلت جسدي خفيفاً، كأني أذوب في الهواء، وأمي كانت متعبة، متوترة، تخرج وتعود دون أن تنظر إليّ كثيراً.

أما هو، فكان جالساً قرب سريري.

لا يتكلم.

فقط يضع قطعة قماش باردة على جبيني، ويعدّل الغطاء، وينظر إليّ كأني شيء هشّ يخاف أن ينكسر بين يديه.

قلت له بصوت ضعيف:

كرستيان...

رفع عينيه إليّ، وقال بهدوء:

نعم يا مولودة؟

سكّْتُ لحظة.

كنت أعرف أنه ليس أبي،

كنت أعرف أن هذه الكلمة ليست لي رسمياً،

لكنني كنت أشعر أنها لي وحدي.

قلت بصوت صغير، مرتجف، كأنني أسرق شيئاً لا يخصني:

أبي...

تجمّد للحظة.

رأيت شيئاً يشبه الدهشة في عينيه، ثم شيئاً يشبه الألم، ثم شيئاً يشبه السعادة التي يخاف الإنسان من لمسها.

لم يقل شيئاً.

لم يصححني.

لم يبتسم كثيراً.

فقط مدّ يده ووضعها على رأسي، وبقي صامتاً طويلاً.

كنت أنتظر أن يقول: "أنا لست أباك".

لكنه لم يفعل.

قال فقط بصوت منخفض:

نامي يا ابنتي.

في تلك اللحظة، فهمت أن الأب ليس من ينجبك.

بعض الكلمات تغيّر مصير رجل، وبعض الكلمات تنقذ طفلة من الوحدة.

وكلمة "أبي" كانت كل شيء بالنسبة لنا.

كان يراقب تنفّسها الخفيف، ويشعر أن كل نفسٍ منها دين في عنقه.

لم ينجبها، ومع ذلك شعر أن الحياة ستعاقبه إن أصابها سوء.

أنا لست والدك... لكن لماذا أشعر أنني سرقتك من رجل لم أعرفه؟

كان يعرف أن الأمومة عند زهراء كانت جرحًا،

وأن وجود الطفلة كان تذكيرًا دائمًا بما حاولت دفنه.

أما هو، فكان يعوّض ذنبًا لم يرتكبه،

ويحمل مسؤولية لم يخترها، لكنه لم يستطع الهروب منها.

أحيانًا يكون الحب عبثًا... وأحيانًا يكون عقوبة جميلة.
الأبوة هي فعل، صمت، حماية، حضور مستمر.
الأبوة... كلمة صغيرة، لكنها أثقل من كل شيء.
الأبوة هي هوية تُصنع بالحب، وتُحفظ بالصمت، وتُثبت بالوجود المستمر.
تذكرت اليوم الذي اصطحبتني فيه كرستيان إلى المدرسة لأول مرة.
لكن كل شيء بدا واضحًا في قلبي الصغير.
دخلنا ساحة المدرسة، أصوات الأطفال تملأ المكان، والضحكات ترتفع في الهواء، وأنا شعرت بالارتباك والخوف.
لكن كرستيان كان بجانبني، هادئًا، مبتسمًا، صامتًا...
حضوره كان كجدار من الأمان.
لم يكن بحاجة لأن يقول شيئًا، كانت عيناه تقولان كل شيء:
"لا تخافي... أنا هنا. مهما حدث، لن أتركك".
جلست في الصف الأول، وكل شيء جديد عليّ:
الطاولات، الكراسي، الأصوات، حتى رائحة الكتب كانت غريبة.

لكني شعرت بشيء لا يُنسى: كرستيان يريد لي الأفضل.

لم يكن يسجلني في المدرسة لئبتعد عني، بل ليعطيني فرصة للنمو، ليعلمني أن الحياة ليست فقط حضناً ودفئاً، بل معرفة، ومسؤولية، وعالمًا أكبر ينتظرنا.

كنت أعرف منذ ذلك الوقت أنني محظوظة... لأن قلبي وجد من يحبني بصدق ويؤمن بي، حتى أكثر من أمي.

في كل مرة كنت أنظر إلى كرستيان، كنت أرى الحب الصامت في كل فعل: في الطريقة التي يحضني بها قبل أن أغادر إلى الصف، في النظر الذي يمنحني ثقة في نفسي، في صمته الذي يحمل كل الكلمات التي لا يعرف كيف ينطقها.

الأبوة ليست دمًا فقط... كانت هناك، أمام عيني، في كل خطوة من خطواتي الصغيرة نحو العالم الكبير.

كان كرستيان يحب عمله كما لو أنه خُلق من أجله.

كان يتقنه بصبرٍ يشبه صبر الأرض حين تنتظر المطر.

أحيانًا كان يمسك يدي، لا بقوة الأب، ولا بخفة الغريب...

بل بشيءٍ بينهما، شيءٍ لم أكن أعرف اسمه.

كنا نتجول في المزرعة.

كان يعلمني أسماء الأشجار، ويحدّثني عن الأنهار، أنها
كائنات حية،

يقول إن لكل شجرة ذاكرة،

وإن النبات يصغي أكثر مما نتخيل.

كنت أصدّقه.

لأن صوته كان دافئًا...

ولأن يده كانت تقول لي إنني لست وحدي.

أما أمي، زهراء،

فكانت تنظر إليّ كما يُنظر إلى شيءٍ وُضع في غير مكانه.

لم تكن تقسو... لكنها لم تقترب أيضًا.

كنتُ مولودةً، نعم،

لكنني لم أشعر أنني وُلدت في قلبها.

فكنت أستند إلى جدتي وردية،

أخبئ رأسي في حضنها كلما ضاقت بي المسافة بيني وبين
أمي.

وأحيانًا،

كنت أسمع كرستيان يعاتب زهراء بصوتٍ منخفض،

يسألها لماذا تعاملني كأنني ظلٌّ عابر.
كان انزعاجه يسبق كلماته،
وكان صمته بعد العتاب أطول من الليل.
كنت لا أفهم كل شيء،
لكنني كنت أشعر أنني سبب حربٍ صامتة.
في ذلك المساء، كنت أقف عند باب المطبخ،
أراقب أُمي وهي تقطع الخبز ببرودٍ يشبه طريقته في النظر
إليّ.
قلت لها، دون أن أرفع صوتي:
- لماذا لا تحبينني؟
توقفت يدها لحظة...
ثم عادت لتقطع، كأن السؤال قطعةٌ أخرى يجب فصلها.
قالت:
- لا تقولي كلامًا فارغًا.
اقتربتُ خطوة.
كان قلبي يرتجف، لكن الكلمات خرجت قاسية:

- أنتِ لا ترينني. أنا أعيش في هذا البيت كأنني خطأ.

نظرت إليّ أخيرًا.

لم يكن في عينيها غضب،

بل شيءٌ أشد قسوة...

لامبالاة.

- لم أطلبكِ، قالت ببرود.

جئتِ في وقتٍ لم أكن أريد فيه أحدًا.

شعرتُ كأن الأرض سُحبت من تحت قدمي.

لم تصفعني،

لكن كلماتها كانت أصفع من أي يد.

صرختُ:

- وأنا؟ ماذا أفعل بهذا الوجود الذي لم تطلبه؟ أين أضع

نفسي؟

دخل كرسيان في تلك اللحظة،

رأى وجهي المبلل بالدموع،

وفهم أن شيئًا انكسر.

قال لها بحدّةٍ لم أسمعها من قبل:

- هي ابنتك.

حتى إن لم تختاريها، فهي اختارت أن تبقى حيّة.

لكن أمي أدارت ظهرها.

وكأن ظهري أنا هو الذي أدارته للعالم.

في تلك الليلة،

فهمتُ أن بعض الأمهات لا يحتجن إلى العنف ليؤذنين،

يكفي أن يسحبن قلوبهنّ من المكان.

جلستُ على أرض غرفتي. لم أبكِ كثيرًا، كنت أحاول أن أفهم فقط.

هل قلتُ شيئًا سيئًا؟

هل لو كنتُ أهدأ... كانت ستحبني؟

هل لو كنتُ أضحك أكثر... كانت ستنظر إليّ؟

نظرتُ إلى يديّ الصغيرتين.

تذكرتُ كيف يمسكهما كرسيتان في المزرعة،

وكيف يقول إن الأشجار تكبر إذا سُقيت جيدًا.

فكرتُ:

ربما أنا شجرة لم تسقها أمي.

وضعتُ أذني على الوسادة،

كنت أسمع صوت الأواني في المطبخ،

وصوت خطواتها...

لكنها لم تأتِ إليّ.

كنت أريدها أن تفتح الباب فقط،

أن تقول: نامي يا مولودة.

حتى لو قالتها بلا حب.

لكن الباب بقي مغلقًا.

في الصباح، جاء كرستيان، وجلس بجانبني، لم يسألني ماذا حدث.

فقط قال:

- الأشجار الصغيرة لا تفهم لماذا لا تمطر السماء...

لكنها تظلّ تنتظر.

لم أفهم كل كلامه،

لكنني شعرتُ أنني لستُ وحدي في الانتظار.
كنت أنظر إليه وهو يجلس على طرف السرير.
كان صامتًا، كأنه يخاف أن يلمس حزني فينكسر.
سألته بصوتٍ صغير:

- هل أنا شجرة سيئة؟
تفاجأ.

اقترب أكثر، وقال:

- من قال ذلك؟
أجبتُ:

- لأن أمي لا تسقيني.

لم يضحك. لم يقل إنني أتخيل. فتح ذراعيه ببطء،
وكانهما بيت.

ترددتُ لحظة...

ثم تسللتُ إلى صدره.

كان دافئًا.

دافئًا مثل شمسٍ لا تؤذي.

سمعتُ قلبه.
كان صوته أقوى من صوت أفكاري.
قال لي وهو يضمّني:
- بعض الأمهات يتعبن يا مولودة...
لكن هذا لا يعني أن الشجرة سيئة.
أنتِ بخير. أنتِ تكبرين كما يجب.
لم أفهم كل شيء،
لكنني فهمتُ جملة واحدة:
أنا لستُ خطأ.
وفي تلك اللحظة،
قررتُ أن أصدق قلبه...
ولو كذّبتني الدنيا كلها.
أصبح كرستيان هو كل شيء بالنسبة لي.
كلما أسمع صوته، قلبي يرقص.
كنت ألاحقه في الحقل، أريد أن أسمع كل كلمة عن
الأشجار والأنهار،

وأحيانًا أظن أن حتى الطيور تسمعنا وتعرف أننا نضحك
معًا.

كنت أمسك يده أحيانًا،

وليس لأنني خائفة،

بل لأن يده تشعرني أنني لست وحيدة... وأن شيئًا بداخلي
لم يمت بعد.

أمي كانت هناك أحيانًا،

لكنني لم أعد أنتظر ابتسامتها أو كلامها.

كنت أعرف أن كرستيان يفهمني، حتى عندما كنتُ
صامتة.

وفي الليل، قبل أن أنام، كنت أغمض عيني،

وأتحيل يده على يدي،

أشعر بدفئها... وكأنها تقول لي: "كل شيء سيكون بخير".

كنت أعلم أن العالم كبير،

وأنه يمكن أن يكون مخيفًا...

لكن مع كرستيان، كنت أشعر أنني أستطيع أن أتنفس
بحرية،

وأنني، أخيرًا، جزء من شيء حيّ وجميل.

كنت أجلس بجانبه تحت شجرة التفاح الكبيرة في
المزرعة.

كانت أوراقها تهتزّ مع النسيم، وكأنّها تهمس لنا بسرّ ما.
قال كرستيان بصوت هادئ:

- هل تعرفين يا مولودة... أن لكل شجرة قصة؟

اتسعت عينيّ، ومال رأسي للأمام:

- قصة؟ كيف؟

ابتسم:

- نعم... كل شجرة كانت صغيرة يومًا، مثلنا.

تحتاج من يعتني بها، ومن يسقيها، ومن يسمعها.

وإذا أهملتها، قد تذبل، وقد ينسى العالم أنها كانت
موجودة أصلًا.

نظرتُ إلى الشجرة، ثم إلى كرستيان:

- وماذا يحدث إذا أحببناها كثيرًا؟

ضحك قليلًا:

- حين تحب الشجرة، تشعر بأنّها تكبر بسرعة...

تمنحك ظلًا، وثمرًا، وربما حتى صديقًا صادقًا.

قلت له بصوت صغير:

- أريد أن أحب كل الأشجار في المزرعة... وأنت أيضًا؟
أومأ:

- نعم، لكن تذكرني... الأشجار مثل الناس، تحتاج أن تُسمع، لا فقط أن تُرى.

لم أفهم كل شيء... لكنني شعرت بدفء غريب في صدري،

كأنني أنا أيضًا شجرة صغيرة،

وأني، أخيرًا، لديّ من يسمعي ويهتم بي.

تمر الأيام بسرعة... وكأن الشمس تجري في السماء دون توقف.

كنت أستيقظ كل صباح وأنا أعرف أن كرستيان سيكون هناك،

في المزرعة، في الحقول، بين الأشجار.

كان كرستيان غريبًا بعض الشيء.

لا يحب الجلوس مع الناس، ولا يضحك كثيرًا معهم...

لكنه كان يقرأ كثيرًا... كل شيء تقريبًا.

كتبًا عن الأشجار، عن الأنهار، عن الطيور... وأحيانًا كتبًا
غريبة، كبيرة، مليئة بالكلمات التي لم أفهمها بعد.

كنت أجلس بجانبه، أصغي إليه،

وأرى كيف تتلأأ عيناه عندما يجد شيئًا مثيرًا في إحدى
الصفحات.

كان صامتًا مع الناس... لكنه معي... كان مختلفًا.

كنت أشعر أن كل ما يقوله من الكتب، وكل ما يشاركه
معي،

هو عالمه الخاص، وهو يريد أن أعبر معه إلى داخله... إلى
عالمي أيضًا.

وفي كل مرة أراه يرفع كتابًا،

كنت أفكر: "هذا الرجل هو أكثر من مجرد معلم.

هو عوض كل ما لم أحصل عليه، وهو سر كل شيء جميل
بالنسبة لي".

كان كرستيان أحيانًا يشتري لي قصصًا صغيرة،

ويقول لي:

- اقرئي يا مولودة، هذه ستعلمك شيئًا جديدًا.

كنت أنظر إلى الصفحات بصمت،

لا لأنني لا أحب القراءة... بل لأن الكلام لا يهمني كثيرًا،
كنت أريد فقط أن أجلس بجانبه، أو أشعر أنني لست
وحدي.

أحيانًا كان يبتسم عندما أحرك الصفحات بسرعة،
أو أقول بصوت صغير:

- لا أفهم...

وكان يقول:

- لا بأس... المهم أن تحاولي.

لكن في داخلي كنت أفكر:

- لا أريد القصة، أريد أن تبقى أبي.

حتى لو لم أحب الكتب،

كانت يده، وصوته، وعنايته تجعلني أشعر بالأمان...

وكأن كل شيء آخر في العالم يمكن أن يُترك جانبًا،

طالما هو معي.

كان كرستيان يبتسم وهو يقول لي أحيانًا:

- أو ربما، مولودة، عندما تكبرين، ستصبحين كاتبة.

ابتسمت، ولم أكن متأكدة ماذا يعني أن أكون كاتبة.
القصص لم تهمني، والكتب لم تكن تسحرني،
لكن كلمات كرستيان كانت تجعل قلبي يشعر بشيء
خاص.

كنت أفكر لنفسي:

- لا أعرف إذا كنت أريد أن أكتب، لكنني أعرف أن
كرستيان يريد أن أكون شيئًا جميلًا في العالم.

حتى لو لم أحب القراءة،

كنت أشعر أنه يزرع شيئًا بداخلي،

شيئًا صغيرًا، دافئًا، يذكرني دائمًا أنه موجود لي،

وأن كل يوم معه هو عالم جديد، حتى لو كنت أنا لا أحب
الكتب نفسها.

"لم أحب القراءة أبدًا، ولم تكن الكتب تهمني، لكنني
أحببت أبي كرستيان".

وأحببت الزراعة، والنبات، والبقرة، والدجاج... وكل شيء
حي حولي. وكرستيان كان معي دائمًا، يعلمني كل شيء
عنهم.

عندما أصبحت في سن الثالثة عشرة تقريبًا،

في أحد الأيام، أمرتني أمي زهراء أن أنظف المنزل كله:

الأرض، الأطباق، النوافذ... كل شيء.

قلت لها بصوت صغير:

- لكن لقد نظفتُ أمس.

نظرت إليّ بعينين باردتين:

- لا يهم. افعلي كما أقول!

أمسكت بالممسحة، وبدأت في كنس الأرض، وأشعر أن كل حركة صغيرة أتكلف بها تبدو صغيرة، لكنها ثقيلة على قلبي،

كأنها تقول لي: "أنتِ لا قيمة لك".

كل مرة أسمع صوتها،

أشعر أن البيت كله يزداد برودة، وأن الكلمات القاسية تدخل إلى قلبي كالسكاكين.

كنت أحاول ألا أبكي، لكنني شعرت أن قلبي يصرخ:

- لماذا لا تستطيعين أن تحبيني قليلاً؟

وفي تلك اللحظات،

كنت أفكر في أبي كرستيان،

وفي كل مرة علّمني فيها شيئًا عن الأشجار أو الحيوانات...
كنت أتمنى لو كنتُ أعيش في مكان يكون فيه كل شيء
دافئًا...

وليس كل شيء ثقيلًا وكئيبيًا...
كنت أشعر أنها تعاملني كخادمة،
كل يوم أعمال تنظيف، جلي الأطباق، مسح الأرض... وكل
شيء في البيت،
وكأنني مجرد شيء يُخدم وليس ابنتها.
وكرستيان... كان يرفض هذا كله.
كان ينظر إلى أمي بغضب هادئ،
ويقول أحيانًا بصوت مرتفع، لكنه ضائع بين حدة البيت:
- لا يمكن أن تُعاملني مولودة هكذا!
أحيانًا، كانت أمي تضربني...
ليس كثيرًا، لكن كل ضربة شعرت بها كأنها تثقل قلبي...
خصوصًا إذا لم أتمكن من تنظيف الجلي كما تريد،
أو لم أنجز المهمة كما تتوقع.
كنت أبكي في صمت،

أشعر بالظلم، وأتساءل: لماذا لا أستحق القليل من
الحنان؟

وأحيانًا كنت أرى أبي كرستيان، يحتضنني أو ينهر أمي
بصوت منخفض لكنه صارم، ويجعلني أشعر أن هناك من
يحميني...

وأني لست وحدي في هذا العالم القاسي.

حتى لو كان كرستيان غريبًا، قليل الكلام،

كان شعوره بالعدل والحماية يملأني شعورًا بالأمان،

وكان كل يوم معه يعني أنني أستطيع الصمود،

حتى أمام قسوة أمي.

كنت أمسك بالممسحة وأجتهد في كنس الأرض،

أشعر أن كل حركة أثقل من السابقة، وكأن البيت كله يريد
سحق قلبي.

فجأة، سمعت صوت أبي كرستيان:

- كفى!

التفتُ... ووجدت كرستيان واقفًا عند الباب، عيناه
صارمتان، ينظر إلى أمي.

- زهراء! قال بصوت منخفض لكنه حاد:

- لا يمكنكِ معاملة مولودة هكذا... إنها ليست خادمة!
ارتجفت أُمي قليلاً... لكنها لم تصرخ.
كنت أقف هناك، ممسكة بالميمسحة، أشعر أن قلبي يكاد
ينفجر من الفرح والدهشة معاً.
أقرب أبي كرستيان مني، ووضع يده على كتفي بلطف:
- كل شيء على ما يرام، مولودة. لا شيء يستحق أن
يحزنك.
أخذت نفساً عميقاً، شعرت بالدفع يملأ صدري.
حتى لو لم أحب القراءة،
وحتى لو كانت أُمي قاسية جداً،
كنت أعلم أن هناك شخصاً يقف بجانبني،
وأنه يعرف قيمة قلبي، وأني لست مجرد خادمة، بل ابنة
تستحق الحب والاحترام.
في تلك اللحظة، شعرت أن كل تعب التنظيف لم يكن
عديم الفائدة؛ لأن كرستيان كان هناك،
وكان عالمي كله، وملاذي الوحيد.
بعد أن هدأ كل شيء، أخذني كرستيان إلى الحديقة خلف
المنزل.

كان الجو دافئًا، والهواء مليئًا برائحة التراب والنباتات الطازجة.

قال لي مبتسمًا:

- تعالي، سأريك شيئًا عن البذور.

كنت أتابعه بعينين مفتوحتين، أسمع صوته وهو يشرح بهدوء كيف تنمو النباتات من بذرة صغيرة، وكيف تحتاج إلى شمس، وماء، وعناية.

لم أكن مهتمة كثيرًا بالكتب، لكن كل شيء قاله لي عن الزراعة كان ممتعًا.

كنت أشعر أن كل شيء حي حولي، الأشجار، النباتات، البقر، الدجاج... يعرفني ويحبني كما أنا.

أحيانًا كنت أساعده في رعاية النباتات أو إطعام الدجاج،

وأرى أبي كرستيان يبتسم ويعطيني نصائح بسيطة،

وكأن كل يوم معًا يجعلني أقوى، أكثر فضولًا، وأكثر تعلقًا به.

وكانت هذه اللحظات تجعلني أشعر أنني أخيرًا لدي عالمي الخاص،

عالم أعيش فيه وأشعر فيه بالأمان، بفضل كرستيان.

مرت سنوات مسرعة ومؤنسة مع أبي كرستيان،

وصرت أكبر قليلاً، أفهم أكثر، وأعرف أن البيت والمزرعة عالمان مختلفان.

مع كل يوم قضيناه في المزرعة،
بدأت أحب كل شيء فيها...

الحقول، النباتات، البذور الصغيرة، الأشجار التي زرناها
معاً،

البقر، الدجاج، الطيور، وحتى النحل الذي يطن حول
الزهور.

كل شيء حي حولي أصبح جزءاً مني...

كنت أتعلم منه كيف أعطني به، كيف أحب ما ينمو أمامي،
وكيف أصبر على الأشياء التي تحتاج إلى وقت لتنمو...

تماماً كما علمني كرستيان.

كنت أمسك النباتات بين يدي،

أراقب الدجاج وهو يمشي في الفناء،

أستمع لصوت البقرة وهي تصدر خوارها، وأفكر في كل
شيء علمني.

كل يوم كان يجعلني أحب الحياة أكثر، ويجعل قلبي
أقوى، وأقرب إليه.

حتى لو لم أحب القراءة أبدًا،
كنت أحب كل شيء حي، وكل شيء مرتبط بالزراعة...
لأن هذا هو عالمي، وعالم كرستيان، وعالم يجعلني أشعر
أنني أخيرًا جزء من شيء كبير وجميل.
مضت الأيام، وكأنها نسخة واحدة تتكرر،
وصرت أركز على المزرعة، هروبًا من أعمال البيت
ومواجهة أُمِّي زهراء.
في البيت، كانت الصراعات والكلمات القاسية تحاصرني
كل يوم،
لكنني وجدت الراحة بين الحقول، الأشجار، والماشية...
وبين العمال الذين يعملون في المزرعة.
كانوا ودودين معي، أحيانًا يعلمونني شيئًا عن النباتات أو
الحيوانات،
وكان أبي كرستيان دائمًا بجانبني، يوجّهني ويعلمني،
وهكذا أصبحت اليد اليمنى له في كل شيء.
دراستي فشلت حتى الصف التاسع الإعدادي...
لكن الزراعة والعمل مع الناس هناك، بين الأرض
والماشية، أصبح كل شيء بالنسبة لي.

كنت أتعلم من كل يوم، من كل حركة،
أعرف متى تُسقى النباتات، كيف تُعتنى الأشجار، كيف
يُطعم البقر والدجاج،
وأشعر أن وجودي هناك له معنى حقيقي.
رغم كل الحب الذي شعرت به تجاه أبي كرستيان،
كان هناك فراغ كبير في قلبي، فراغ الأم التي لم تمنحني
الحنان الذي كنت أحتاجه.
الحنان غائب في البيت،
وكل صرخاتها وكلماتها القاسية تركت أثرًا لا يُمحى.
رغم أن أبي كرستيان كان يملأ عالمي بالدفء والعناية،
ظل هناك شيء داخلي لا يمكن لأي شخص أن يملأه
بالكامل...
كنت أتعلم شيئًا مهمًا:
أن الحب وحده، مهما كان نقيًا وصادقًا، لا يكفي لمحو كل
أثر فراغ.
وأن وجود شخص يعتني بك، مهما كان، لا يعوض غياب
الأمومة.
لكنني أدركت أيضًا أن الحياة ليست مثالية،

وأن القوة تكمن في القدرة على إيجاد الأمان والحب في أماكن أخرى، بعيداً عن الألم.

وهكذا، تعلمت أن أستمد قوتي من الأرض، من الأشجار، من الحيوانات،

حتى لو بقي قلبي يحمل شيئاً من الفراغ،

كنت أستطيع أن أعيش، أن أحب، وأن أكون جزءاً من شيء حي وجميل،

شيء يجعل وجودي ذا معنى، رغم كل ما فقدته.

وأن كل شيء أفعله مع أبي كرستيان والعمال يجعلني جزءاً من شيء أكبر.

البيت قد يكون مكاناً للقسوة،

لكن المزرعة، والحقول، والعمال... كانت عالمي، ومكان الأمان الذي يملأ قلبي بالسلام.

حتى دراستي فشلت...

ولم يكن السبب أنني غير ذكية أو كسولة...

بل لأن الأم التي من المفترض أن تمنحني الحنان والدعم، لم تكن موجودة لي إلا بالقسوة والكلمات الجارحة.

كل يوم كنت أشعر بالفراغ الذي تركته،

وكل كتاب وكل درس لم يكن له معنى أمام صرخاتها
ونظراتها الباردة.

ومع ذلك... وجدت عالمي في المزرعة،
في كرستيان، في الأشجار، الحيوانات، والعمل الذي
أعطاني شعورًا بالقيمة والوجود.
جلست بجانبه بين الأشجار، أراقب الشمس تغرب خلف
الحقول.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم قلت بصوت متردد:
- كرستيان، أمي كانت قاسية جدًا معي.
كانت تضربني إذا لم أنجز أعمال البيت كما تريد، وكانت
كلماتها تؤلمني أكثر من أي شيء.
نظر إليّ كرستيان بعينين مليئتين بالحنان، وقال بصوت
هادئ:

- أعلم، مولودة... أعلم كم كانت صعبة عليك.
تابعت، والدموع تكاد تلمع في عيني:
- وأبي لم يزرني يومًا. لم يرسل لي حتى قطعة حلوى...
سمعت أنه تزوج وله أطفال آخرون. ولماذا لم أكن أنا
جزءًا من حياته؟

لماذا لم يهتم بي؟

ابتسم كرستيان بحزن، ووضع يده على كتفي:

- لا أعرف، لا يمكنني أن أجيب عن هذا. أحياناً الكبار يفشلون في الحب بطرق لا يفهمها الصغار، لكنك لست السبب، مولودة.

قلت بصوت منخفض:

- أشعر أنني الضحية... أمي قاسية... وأبي بعيد... كل شيء يؤلمني... وأنا وحدي...

شد كرستيان يدي بحنان:

- أنت لست وحدك، مولودة... أنا هنا. كل شيء تعرفينه عن نفسك وعن المزرعة... كل شيء تعلمته معي... هذا يثبت أنك قوية، وأن قلبك قادر على الحب، رغم كل ما فقدته.

ابتسمت له قليلاً، وقلت:

- أحبك... أبي كرستيان... لأنك كنت دائماً هنا، عندما لم يكن أحد آخر...

أوما كرستيان برفق، وقال:

- وسأظل هنا، مولودة، حتى تجدي لنفسك الأمان والحب، كما تستحقين.

كان كرستيان يحب عمله، بل كان يعيش من أجله.
كان يتنقل من مزرعة إلى أخرى، من أرض إلى أرض،
كأن الأرض كلها بيته، وكأن الأشجار تعرفه أكثر من البشر.
لكن زهراء لم تكن مثله.

كانت تملّ من السفر،

تملّ من تغيير البيوت،

من الوجوه الجديدة،

ومن حياة لا تعرف الاستقرار.

كنت أسمعها كثيرًا تقول له، بصوت متعب وغازب:

- إلى متى سنبقى هكذا؟ من مزرعة إلى أخرى؟

أريد بيتًا واحدًا، مدينة واحدة، حياة طبيعية!

وكان كرستيان يرد بهدوء، لكنه يحمل إصرارًا داخليًا:

- هذا عملي يا زهراء. هذه حياتي.

لا أستطيع أن أترك كل شيء وأبقى في مكان واحد.

لكنها لم تكن تقنع.

وكانت كل مرة تتكرر فيها الكلمات نفسها،

تترك في البيت توترًا صامتًا وثقلًا كنت أشعر به.

شيئًا فشيئًا،

بدأت الخلافات تكبر،

وأصبحت أصواتهما أعلى،

ونظراتهما أبرد...

زهراء كانت تريد حياة مستقرة في مدينة،

وكرستيان كان يرى نفسه في الحقول، في التنقل، في العمل
الذي لا يتوقف.

أما أنا...

فكنت أقف بينهما...

لا أفهم كل شيء... لكنني أشعر بكل شيء.

أتذكر ذلك اليوم جيدًا. كان البيت صامتًا بشكل مخيف...
وكأن شيئًا ثقيلًا سيحدث.

وقفت زهراء أمام كرستيان، عيناها ممتلئتان بالغضب
والتعب، وقالت بصوت لم أسمعه منها من قبل:

- أنا تعبت. لم أعد أستطيع أن أعيش هكذا، من مزرعة
إلى أخرى... من مكان إلى آخر.

أريد أن أستقر، أريد حياة طبيعية.

سكتت لحظة، ثم قالت الكلمات التي كسرت كل شيء:
- أريد الطلاق.

شعرت أن الأرض اهتزت تحتي.
لم أفهم الكلمة تمامًا، لكنني شعرت أنها تعني النهاية.
نظر إليها كرستيان طويلًا.
لم يغضب... لم يصرخ.

فقط قال بصوت هادئ، لكنه كان يحمل ألمًا عميقًا:
- الطلاق؟

هل هذا هو الحل في نظرك؟
ردت بسرعة، وكأنها كانت تحمل هذه الكلمات منذ زمن:
- نعم، هذا هو الحل.

أنا لم أعد أحتمل هذه الحياة، ولا أريد أن أضيع عمري في
التنقل وراء عملك.

خفض كرستيان رأسه للحظة، ثم قال:

- وأنا؟ وهذا البيت؟ وهذه الفتاة؟
نظرت زهراء نحوي للحظة باردة، ثم قالت:

- كل واحد يتحمل اختياره، وأنا اخترت أن أعيش.
في تلك اللحظة...

شعرت أنني لست جزءًا من القرار...
ولا من الحياة التي يتحدثون عنها...
كنت فقط... فتاة تقف في الزاوية...
تشاهد عالمها يتكسر... بصمت.

بعد هنيهة صمت،

رفعت زهراء رأسها، وكأنها أخيرًا قررت أن تقول كل ما
بداخلها، وقالت بصوت حاد:

- أنا لا أريد هذه الحياة بعد الآن... التنقل، التعب، وعدم
الاستقرار.

أنا أريد شيئًا خاصًا بي.

نظر إليها كرستيان بصمت، فتابعت:

- أريد مزرعة، أرضًا كبيرة، أشجارًا متنوعة، حقولًا،
خدمًا يعملون فيها، أغنامًا... دجاجًا،
ومنزلًا كبيرًا... مستقرًا... لا أرحل منه كل يوم!

كان صوتها يحمل حلمًا... لكنه كان أيضًا مليئًا بالأنانية
التي لم أفهمها حينها.

قال كرستيان بهدوء، لكنه بدا مصدومًا:

- كل هذا يمكن أن نحققه معًا، لكن ليس بهذه الطريقة يا
زهراء.

هزّت رأسها بقوة:

- لا، ليس معك.

أنا تعبت من أن أعيش خلفك. أريد أن أعيش لنفسي!

في تلك اللحظة،

فهمت، رغم صغري،

أن الأمر لم يكن مجرد تعب،

بل كان رغبة في حياة لا مكان لنا فيها.

نظرت إليهما، وشعرت أنني أصبحت أصغر من قبل،

وكأنني لم أعد جزءًا من هذا البيت،

ولا من هذا الحلم الذي تتحدث عنه زهراء.

ساد صمت ثقيل بعد كلمات زهراء،

صمت لم أسمع مثله من قبل.

وقف كرستيان مكانه، كأن الزمن تجمّد عنده.

لم يتحرك، لم يغضب،

فقط كانت عيناه ثابتتين عليها، لكن فيهما شيئاً انكسر،
شيئاً لم أستطع تفسيره وأنا صغيرة.

خفض رأسه ببطء،

ومرر يده على وجهه، وكأنه يحاول أن يمحو ما سمعه أو
يوقظ نفسه من كابوس.

قال بصوت خافت، لم يكن يشبه صوته أبداً:

- كل هذه السنوات كانت تعني لكِ لا شيء؟

لم تجب.

رفع عينيه نحوها مرة أخرى، لكن هذه المرة...

لم يكن فيهما نفس الرجل الذي كنت أعرفه،

كان هناك تعب، خذلان، وانكسار صامت.

- كنت أظن أننا بنينا شيئاً معاً.

قالها ببطء، وكأن كل كلمة تؤلمه.

اقترب خطوة، ثم توقف، كأنه تذكر فجأة أنه يقف وحده.

- لكن يبدو أنني كنت أبني وحدي.

خسر الإيمان بأن ما يقدمه يكفي.
لم يصرخ، لم يعترض،
فقط صمت،
وكان صمته أقسى من أي كلمة.
أما أنا،
فكنت أراقب بصمت،
وأشعر أن الرجل الذي كان يبدو قويًا دائمًا...
قد انكسر أمامي، دون أن يسقط.
وقف كرستيان مكانه، عيناه ثابتتان عليها،
وفيهما حزن لم أره من قبل.
خفض رأسه قليلًا، ثم قال بصوت خافت، متعب:
- الطلاق؟ لا يا زهراء، لا أريد هذا.
نظرت إليه ببرود، وكأنها لم تتأثر،
لكنه تابع، وهذه المرة كان صوته يحمل شيئًا أعمق:
- أنا لا أريد أن أخسر.
كل هذا الذي عشناه لم يكن فراغًا بالنسبة لي.

تقدم خطوة نحوها، ببطء، وكأنه يخشى أن تبتعد أكثر:

- إن كنتِ تريدين الاستقرار... سنجده...

إن كنتِ تريدين مزرعة... سنبنيتها...

لكن لا تطليبي مني أن أتركك.

كانت كلماته صادقة... موجهة...

كأن رجلاً قوياً يضع قلبه بين يديها دون دفاع.

لكن زهراء بقيت صامته...

صمتها كان أبرد من أي رفض.

في تلك اللحظة...

فهمت أن كرستيان لم يكن ضعيفاً...

بل كان يحبها إلى حد جعله يرفض أن يخسرها، حتى وهو
ينكسر من الداخل.

أما أنا...

فكنت أراقب ذلك الحب...

وأتعلم لأول مرة...

أن بعض القلوب، رغم قوتها... تختار البقاء... حتى في
الألم.

مرت أيام.

وقف كرستيان في وسط المزرعة، يحمل الحقائب الثقيلة...

كأن كل حقيبة تمثل جزءًا من روحه، جزءًا من ذكرياته، جزءًا من كل ما بناه هنا.

نظرت إليه...

وقفتُ عاجزة عن الكلام...

كل شيء بدا صامتًا: الحقول، الأشجار، الحيوانات... وكأنها كلها تعرف أن شيئًا سيغادر.

اقترب مني ببطء، ورفع حقيبته عن الأرض للحظة، ثم نظر إليّ بعينين تلمع فيهما دموع مكبوتة:

- مولودة...

قالها بصوت منخفض، لكنه مليء بالحب والحزن:

- أعدك... سأعود...

أحسست برعشة في يدي عندما أمسكت يده...

كأن كل شيء حولنا يختفي...

أصوات الطيور اختفت، حتى الرياح توقفت،

وكان هناك أنا... وهو... والمزرعة... وكل شيء أصبح وداعًا مؤلمًا.

الدموع انهمرت على خدي...

- سأشتاق لك... يا كرستيان...

همست بصوت يختنق بالبكاء...

ابتسم ببطء، لكنه لم يقدر على الكلام أكثر...

عانق زهراء.

ثم أمسك بيدي للحظة أطول، وكأن هذه اللحظة الأخيرة.

ثم رفع حقيبته، وتقدم نحو الباب الرئيسي...

أخذ نفسًا عميقًا، نظر إلى كل زاوية وكل حجر... وكأنه يحاول أن يحفظها في قلبه.

تقدم نحو السيارة... ثم رحل.

أما أنا...

فوقفت هناك، أراقب... وكل شيء بدا باهتًا بعده...

كأن الشمس نفسها لم تعد تشرق كما كانت...

بدأت أهول في المزرعة، أصرخ من كل قلبي:

- لقد رحل كرستيان! لقد رحل كرستيان!

صرخت، وصرخت، ودموعي تتساقط بغزارة،
والبكاء يخرج مني بكاءً مريراً لم أشعر به من قبل...
صوتي ارتفع أكثر...
- أمي! أنتِ السبب!
أنبش الأرض بيدي، وأصرخ، وأصرخ... وكأن كل الأرض قد
سرت قلبي معها.
لحظة... شعرت بيد تمسك شعري، وصفعة قوية على
خدي...
نظرت إليها... زهراء واقفة، عيناها باردة، ووجهها لا يظهر
أي تعاطف.
لكني لم أتوقف.
أكملت البكاء.
كل شيء بدا وكأنه انهار:
الأرض، السماء، الأشجار، حتى الرياح توقفت كي تستمع
لصرختي.
مريوم، وكان اليوم أطول من كل الأيام التي عشتها.
المزرعة بدت مختلفة...
صامتة أكثر... باردة أكثر...

وكانها فقدت روحها برحيل كرستيان.

في الصباح، وصل رجل...

كان غوجي، أخا كرستيان.

نزل من السيارة ببطء،

نظر حوله، إلى الحقول، الأشجار، الحيوانات...

كانه يقارن كل شيء بما يعرفه، أو بما سمعه.

كنت أراقبه من بعيد...

لم أشعر نحوه بشيء...

لم يكن كرستيان.

اقترب مني قليلاً، وقال بصوت هادئ:

- أنتِ مولودة؟

هزرت رأسي دون كلام...

كنت لا أزال أحمل داخلي صدى الأمس... صراخي، بكائي،
وفراغي.

قال بعد لحظة صمت:

- سأبقى هنا من أجل العمل حتى يعود كرستيان.

حتى يعود.

تمسكت بهذه الكلمة وكأنها أمل صغير وسط كل هذا الألم.

لكن قلبي لم يطمئن؛

لأن المكان، رغم وجود الناس، كان لا يزال فارغًا... فارغًا منه.

بعد رحيل كرستيان،

لم يتغير البيت فقط،

أنا التي تغيرت.

لم أعد أبكي...

لم يعد فيّ ما يكفي من الدموع.

كانت أمي زهراء توقظني قبل الفجر،

صوتها يخترق نومي كأمرٍ لا يُرفض:

- انهضي.

أنهض... بلا كلام.

أدخل المطبخ، الماء بارد،

أغسل الأواني، يداي ترتجفان،

لكنني لا أتوقف.

صرت أعيش كل يوم كأنه اختبار جديد لقوة صمتي.

زهراء لم تعد ترى فيّ ابنتها، بل آلة للعمل فقط، صوتًا يجب أن يصمت، وجسدًا يتحمل كل شيء. كانت توقظني قبل الفجر، ولا تسمح بأي تأخير. أغسل، أنظف، أحمل الماء، أرتب كل زاوية في البيت... وأحيانًا أسمع كلماتها الجارحة تسقط عليّ:

- لا تتقنين شيئًا... أنتِ عبء!

تعلمت أن أختبئ خلف الصمت، أن أكتم دموعي، وأن أتحمل كل شيء وحدي. في الليل، أهرب إلى الحقول، أراقب الأشجار، أسمع الرياح، وأشعر أن كرستيان موجود هناك، في كل ركن من المزرعة... لكنه بعيد.

وعلى الرغم من كل التعب، بدأت أجد نفسي في المزرعة. تعلمت الزراعة، فهمت ماشية البيت، أصبحت أستطيع أن أكون اليد اليمنى لكرستيان في كل شيء. حتى وإن لم يكن حاضرًا، أصبح حضوره معي في كل عمل أقوم به، في كل خطوة أتخذها.

لكن زهراء لم تتوقف عن الضغط. كل خطأ، كل تأخير، كان يغرس فيّ شعورًا بالذنب والخوف. كنت أعلم أن أتحمل القسوة، أن أتحمل ألم الرحيل، وأحتفظ بحبي وذكرايati لأبي كرستيان في قلبي وحده.

ومع كل هذا، نما داخلي شيء آخر، شيء صلب.

بدأت أفهم أن الحياة لن تُعطيني شيئاً، بل عليّ أن أقاتل لأحصل على نفسي، حتى لو كان الثمن كل دمعة لم تُدرف بعد، وكل صمت احتفظت به لنفسي.

الأمومة... كلمة صغيرة، لكنها تحمل في طياتها قوة الحياة بأكملها.

هي الحاضن الأول، المرجع الأول، الحضن الذي يعطي بلا مقابل، أو هكذا يُفترض.

لكن أحياناً، تكون الأمومة قاحلة،

ليس لقصور الطفل، ولا لضعفه، بل لأنها غائبة عن قلب الأم نفسها.

الأم التي لا تعرف الرحمة، لا تعرف الحنان، لا تعرف كيف تزرع الأمان...

تصبح الكلمات التي يجب أن تدفئ روحاً صغيرة مجرد صدى بارد...

والأفعال التي يفترض أن تحمل الحب تتحول إلى واجب ثقيل، أو أداة قمع.

الطفل... يتعلم مبكراً أن الحب قد يغيب...

أن الحضن قد يكون فارغاً...

أن الأمان ليس دائمًا موجودًا...

يتعلم أن العالم لا يمنح شيئًا، وأن القوة تأتي من تحمل
القسوة، من صمت الألم، من إيجاد ملاذ في أي شيء آخر
سوى الأم...

في غياب الأمومة... تصبح الأرض، الأشجار، الحيوانات،
أو أي مكان يمكن أن يحتضن القلب، هو المرجع.

تبحث الروح عن حضن لم تعرفه... عن دفء لم يُمنح...
وتبني شخصيتها حول فراغ، حول صمت، حول قوة
متولدة من غياب الحنان...

الأمومة القاحلة تعلم الطفل شيئًا واحدًا:

أن الحب لا يأتي دائمًا من المكان المتوقع، وأن من يفتقد
الحضن الحقيقي، عليه أن يصنعه بنفسه.

وهكذا... تصبح كل بذرة تُزرع، وكل شجرة تُعتنى بها، وكل
حيوان يُرعى، محاولةً لتعويض الفراغ... محاولةً لتجاوز
الألم...

محاولةً لإيجاد معنى للحياة رغم غياب أول حب يفترض
أن يعطي القوة...

مرت أربعة أشهر تقريبًا... أو أكثر، لقد كانت كعمر كله.

أيام ثقيلة، صامتة، بلا ظلّ، بلا صوته، بلا الخطوات التي
كنت أحفظ إيقاعها مثل نبض قلبي.

في الصباح مع الفطور، وفي المساء مع الصمت، وفي عيني
زهراء كلما سرحت بعيدًا.

وأخيرًا،

رجع كرستيان.

وعيناه تبحثان عن شيء... ربما عني.

انفجرتُ ركضًا...

ركضت كما لم أركض في حياتي.

كنت أصرخ اسمه بصوت مخنوق، مرتبك، يحمله الشوق
أكثر مما تحمله رئتاي:

أبيببي!

- كرستيان!

- كرستيان!

عندما التفت نحوي... رأيت التعب في عينيه، لكن خلفه
رأيت شيئًا أعمق:

رأيت رجوع الأب... رجوع الحنان... رجوع الشخص
الوحيد الذي لم يتركني يومًا إلا مرغمًا.

توقفتُ أمامه وأنا ألْهث، ودموعي تسبق كل الكلمات التي
كنت أحاول قولها.

لم يقل شيئاً...

مدّ يده ومسح دموعي، ثم قال بصوت مكسور لكنه دافئ:

- عدت... لم أستطع أن أتركك يا مولودة.

حينها...

شعرتُ أن روحي التي كانت معلقة في الهواء طوال غيابه،

سقطت أخيراً في مكانها.

كان قلبي ما يزال يرتجف من شدة الفرح حين عدتُ
أركض خلف كرستيان...

لكن ما إن دخل ساحة المزرعة، حتى رأيتها:

زهراء... واقفة عند باب البيت، متجمدة، لا تتحرك، كأنها
لم تتوقع رجوعه حقاً.

توقف هو...

نظر إليها طويلاً، نظرة تحمل تعب الطرقات، وابتلاع
الغصبات، وحباً ما زال يقاوم رغم كل شيء.

ثم تقدّم نحوها بخطوات بطيئة...

بخطوة... فخطوة...

حتى وصل أمامها.
لم تقل شيئاً.
لم يتحرك وجهها.
لكن عينيها كانتا تهربان يميناً ويساراً، كأنها تخشى مواجهة حقيقة رجوعه.
وفجأة، فتح كرستيان ذراعيه وعانقها.
عانقها بقوة.
بقوة رجل خاف أن تضيع منه زوجته،
بقوة من باع ميراثه، وذكرياته، وبلده،
ليعود إليها وإلينا.
كانت يداها في البداية متخشبتين، ساكنتين، كأنها لا تعرف ماذا تفعل،
ثم ببطء رفعت يداً واحدة، ووضعتها على ظهره...
لم يكن عناق حبّ،
كان عناق صمت،
عناق تعب،
عناق خوف من الانهيار أمامه.

وقفتُ أنا بعيداً...

أراقب.

أتنفس بصعوبة.

أقول في داخلي:

هو عاد، لكنه هو من عانقها أولاً.

لكن لماذا لم تعانقه هي؟ الويل، إنها قاسية مع الجميع.

ابتلعتُ الدموع،

وأخففتُ رأسي نحو الأرض،

كأنني أحاول إخفاء كل شيء: فرحي برجوعه، وألمي من
المشهد.

عندما افترقا، كان كرستيان ينظر إليها كمن يستعيد شيئاً
ضائع...

وكان وجهه زهراء بلا تعبير،

لكن في عينيها لمعة لم أفهمها:

هل كانت ندمًا؟

خوفًا؟

أم عقلاً يحسب ماذا سيستفيد؟

أما أنا...

فكنت أكتشف لحظتها فقط

أن العودة ليست دائماً كما نتخيلها.

كرستيان:

عدت بعد كل هذا البُعد، بعد أن خسرت إخوتي، بعت
ذكرياتي، وتركت كل ما يربطني بماضي وأراضي أمي وأبي،
لأبقى هنا، لأبقى معك.

زهراء:

أعرف، وأنا حزينة من أجلك.

كرستيان:

حزينة؟ لم تعرفي ماذا يعني أن تفقد كل شيء... أن ترى
وجوه إخوتك تتلاشى من حياتك، وأن تبتلع ذكرياتك،
وأن تتحمل صمت الماضي كله... وكل هذا لأجلنا!

زهراء:

كل هذه الخلافات كانت بسبب رغبتني في الاستقرار. لم
أعد أتحمل تنقلك من مزرعة إلى أخرى. أردت فقط أن
نبني حياة هنا، في مكان واحد، لنجد الطمأنينة.

كرستيان:

طمأنينة؟ طمأنينة! وهل تعرفين كم كان الثمن؟ كل خطوة أخذتها كانت ألمًا... كل لحظة بعيدة عنك كانت جرحًا... كل شيء ضاع، وها أنا أعود منكسرًا... والفراغ لا يتركني.

زهراء:

أعلم، وأنا حزينة لأنك تحملت كل هذا الألم... لأنك... لأنك أحببتنا رغم كل ما ضاع.

كرستيان:

الحب لم يكن كافيًا. ربما لم يكن كافيًا، لكن قلبي لم يمت، رغم كل الفراغ، رغم كل الخسارات، رغم كل الصمت الذي عاشته روحي.

زهراء:

سيصبح كل شيء بيننا أكثر هدوءًا، ربما، وأكثر استقرارًا.

كرستيان:

ربما، لكن لا شيء يمحو الألم، ولا شيء يعيد ما فقدته.

بعد عودة كرسيتيان بأيام قليلة، جلس إلى جوار زهراء، وقال بصوتٍ يحمل التعب والحماسة معًا:

- يا زهراء، لقد وجدتُ أرضًا واسعة، مساحتها أربعة هكتارات، في طريق فاس، تحديدًا في بلدة سبع عيون،

الواقعة بين مكناس وفاس. أرضٌ على الطريق الرئيسة، موقعها رائع، تصلح للزراعة وتربية المواشي وبناء بيت كبير.

رفعت زهراء عينيها إليه. كانت نظرتها مترددة، لكنها ليست باردة. بدا الفضول واضحًا في ملامحها، وقالت بصوت خافت:

- أربعة هكتارات حقًا؟

قال:

- نعم، أرضٌ منبسطة، لا حجارة فيها ولا وعورة، تشرق عليها الشمس طوال النهار، وهي قريبة من الطريق ومن التجمعات السكنية.

سكتت قليلًا، ثم سألت:

- كيف تبدو بالضبط؟

قال كرستيان:

- أريدك أن تأتي معي لترى بعينيك. لا أريد أن أختار وحدي، أريد أن يكون القرار قرارنا معًا. إن أعجبتك، نشترىها غدًا.

في صباح اليوم التالي، خرجا معًا، وكانت مولودة ترافقهما. جلست بصمت وهي تراقبهما وهما يتحدثان. كلما اقتربوا

من سبع عيون، كان قلبها يخفق بسرعة، فقد كانت تشعر أن شيئًا جديدًا ينتظرهم هناك.

حين وصلوا إلى الأرض، وقف كرستيان وسطها، ومدّ يده مشيرًا إلى جهاتها المختلفة، وقال:

- هنا سنبني البيت، وهنا ستكون الحقول، وهنا سنجلب الماشية. أما الطريق فهي قريبة، والمنظر مريح للنفس.

كانت زهراء تتقدم خطوات قليلة، ثم تتوقف، تنحني وتلمس التراب بيدها، كأنها تختبره أو تختبر مصيرها فيه. شعرت براحة خفيفة تسري في صدرها، وقالت أخيرًا:

- مكانٌ واحد نستقر فيه أخيرًا... حياة بلا تنقل.

ابتسم كرستيان ابتسامة صغيرة امتلأت بالطمأنينة، وقال:

- إذا أعجبتك، نشترها اليوم.

أجابت:

- نعم، لنشترها.

في تلك اللحظة، شعر كرستيان كأنه استعاد شيئًا فقدّه منذ زمن، وأن رحلة الأشهر الماضية، بكل ما حملته من ألم، لم تذهب هباءً.

أما مولودة، فكانت تقف في طرف الأرض، تنظر إلى الحقول الممتدة بعيني فتاة ترى مستقبلاً مجهولاً، لكنه جميل. كانت الريح تحرك شعرها، بينما قلبها يهمس: هذه الأرض ستغيّر كل شيء في حياتنا.

في صباحٍ صافٍ، دخلا مكتب التوثيق بمدينة مكناس. وقف كرستيان أمام الموثّق يحمل بيده أوراق شراء الأرض الجديدة. كانت زهراء إلى جانبه، لكنها لم تكن تدرك أن شيئاً أكبر ينتظرها. كانت تعتقد أنهما سيوقعان معاً، وأن الأرض ستكون ملكاً لكرستيان لا أكثر.

عندما انتهى الموثّق من الطباعة، دفع الأوراق نحو كرستيان، وقال له:

- تفضل، وقّع هنا.

ثم التفت نحو زهراء وقال:

- والآن تفضلي يا سيدة زهراء، وقّعي أنتِ أيضاً، فهذه الأرض مسجلة باسمك.

تجمدت زهراء في مكانها.

رفعت عينيها ببطء نحو كرستيان، وقد اتسعت حدقتها دهشة. لم تستطع الكلام. وضعت يدها على صدرها دون وعي، وقالت بصوت متقطّع:

- باسمي؟

اقترب منها كرستيان خطوة ثم خطوة، كأن المسافة بينهما ثقل سنوات طويلة. رفع الأوراق إليها، وقال:

- نعم، باسمك أنت. هذه الأرض أهديها لك يا زهراء. فهي ليست أرضًا فقط، بل ما تبقى من عمري.

نزلت دمعة ساخنة من عين زهراء. لم تكن دمعة فرح فقط، ولا دهشة فقط، بل دمعة امرأة لم تتوقع أن يقدم رجلٌ على شيء كهذا لأجلها. مسحها بارتباك، وقالت:

- لماذا أنا؟ لماذا لم تحتفظ بها لنفسك؟

رفع كرستيان رأسه، ونظر إليها نظرة رجل خسر الكثير، لكنه لا يزال قادرًا على العطاء، وقال بصوت خافت لكنه ثابت:

- يا زهراء، هذه الأرض ثمنها جاء من بيع ميراث أمي وأبي، ذكرياتي وطفولتي، وما جمعته تلك العائلة الصغيرة التي ضاعت بعد رحيلهم. وعندما بعته، خسرت إخوتي، ضاق صدرهم وفارقوني. لم يبقَ لي سوى أنت، ومولودة، وغوجي.

اقترب منها أكثر حتى كاد صوته يلامس قلبها، وقال:

- أنتِ أُملي بعد موت أمي. أنتِ من تبقى لي في هذه الحياة. أريدك زوجة لي كما كنت دائمًا، وأُمًا لبيتي

ولعائلي، وأريد أن يكون لك شيء ثابت، شيء تقولين عنه: هذا لي، هذا بيتي، هذا قراري.

لم تستطع زهراء الوقوف أكثر. سقطت على الكرسي، وبكت بكاءً صامتًا، ثم بكت بصوتٍ أعلى، كأن شيئًا في قلبها انكسر أو التحم، لا أحد يعلم. كانت دموعها تنزل على يديها، وهي تنظر إلى الأوراق أمامها، وتقول بصوت ضعيف:

- لم أتوقع هذا منك يا كرستيان... لم أتوقع هذا أبدًا.

كانت أصابع كرستيان ترتجف وهو يمسح دموعها. لأول مرة منذ سنوات، شعر أن قربهما يمكن أن يعود، شعر أن المسافة التي صنعتها الأيام يمكن أن تضيق من جديد. ثم جلس أمامها، وقال:

- هذه الأرض ليست ملغًا لك فقط، بل عهدًا بيننا أن نبقي معًا مهما خسرنا.

ترك الموثق قلمه، وتوقف عن الكتابة. كان المشهد أكبر من كلماته.

أما مولودة، التي كانت واقفة عند الباب، فقد شعرت كأن قلبها يختنق من قوة اللحظة. رأت أبويها يبكيان معًا للمرة الأولى. فهمت أن الأرض ليست أرضًا، وأن الدموع التي تسقط ليست دموعًا عادية، بل دمعة حياة جديدة على وشك أن تبدأ.

المزرعة

تبدّلت حياة العائلة منذ لحظة شراء الأرض الجديدة. لم يعد البيت القديم محطة انتظار، ولا المزرعة المؤقتة مكانًا للترحال. مع أول يوم وُقّع فيه العقد، قرر كرستيان أن يبدأ حياة أخرى، حياة تشبه ذكريات طفولته في شارتر، فاختار أن يبني بيتًا كبيرًا على الطراز الأوروبي؛ بيتًا واسع النوافذ، تعلوه شرفات خشبية تشبه تلك التي كان يطلّ منها وهو طفل.

ومع بداية الأشغال، تحولت مولودة إلى اليد اليمنى لكرستيان. كانت تحمل من القوة والخبرة ما يفوق عمرها. أصبح يعتمد عليها في كل شيء: شراء الإسمت والحديد، جلب الرمل، متابعة البتّائين، مراقبة الحفر، وتنسيق التوريدات. حتى البتّاؤون أنفسهم كانوا ينادونها "السيدة الصغيرة"، احترامًا لذكائها وحزمها وقدرتها على تنظيم العمل.

ومع مرور الشهور، تشكّلت المزرعة كما تخيلها كرستيان تمامًا. بُنيت الأسوار بدقة، وتم ترتيب المسالك، ورُسمت الحدائق كأنها لوحات أوروبية. لم يكن بناء منزل فحسب، بل إعادة خلق حياة كاملة من الصفر.

زرع كرستيان أشجار اللوز والكركاك والتفاح والبرتقال والخوخ والزيتون والليمون والسفرجل والمشمش

والبرقوق بمختلف أنواعه. وبني إسطبلاً كبيراً للماشية،
وجّهزه بعناية، كأنه يؤسس لمملكة زراعية صغيرة، لا
تشبه سوى أحلامه.

وفي الجهة القريبة من البيت، أخذت زهراء دورًا آخر؛
صارت سيدة الورود. كانت تزرع البذور بنفسها وتسقيها
كل صباح. تنحني فوقها بمحبة، وترتب أغصانها بهدوء،
وتبتسم عندما ترى الألوان تتفتح. كانت تبدو مختلفة
تمامًا: امرأة وجدت أخيرًا المكان الذي يمنحها إحساسًا
بالاستقرار.

أما مولودة، فكانت تقف بعيدًا ترأب المشهد يومياً. ترى
أمها تتعامل مع الورود بحنان لم تعرفه معها يوماً. كانت
تنظر إلى الماء وهو ينزل فوق الأوراق، وتبتلع غصة
عميقة كلما شاهدت تلك العناية.

وكان صوتها الداخلي يقول في مرارة صامتة:

يا ليتني كنت وردة تسقينها يا أمي...

يا ليت يدك اقتربت مني كما تقترب من هذه الأغصان.

أنا صرت فتاة ولم أعد تلك الطفلة، ولم أشعر يوماً
بحنانك، ولا بلمستك، ولا بابتسامة تخصني.

كان البيت واسعاً، بنوافذ كبيرة يدخل منها الضوء كما
أرادَه كرستيان، وبسقفٍ خشبي يعطي المكان دفئاً لا يشبه
أي بيت مرّوا به من قبل. أول من تعلّق بالمكان كان هو؛

كان يمشي بين الغرف ببطء، يتحسس الجدران كأنها حلم طال انتظاره.

أما زهراء، فقد وجدت نفسها أخيرًا ملكة في مملكتها الجديدة. كانت تصحو قبل الجميع، تفتح النوافذ، وتتفقد الورود حول البيت. كانت تسير في المزرعة كأنها خُصّصت لأجلها وحدها. وفي المساء، تجلس في الشرفة تنظر إلى امتداد الأرض وتتنفس بعمق. كانت تشعر أنها وصلت أخيرًا إلى ما طالما حلمت به: أرض، وبيت، واستقرار.

وبينهما كانت مولودة...

تعيش في قلب البيت، لكنها تشعر دائمًا أنها على الحافة.

كانت تستيقظ قبل الشمس لتتفقد العمال، وتعطي التعليمات، وتراقب الأشجار الجديدة. كانت تعمل أكثر من الجميع، ومع ذلك لم يكن أحد يلاحظ حجم الجهد الذي تبذله. كل شيء مرتب ومنظم بفضلها، لكن الفضل كان يُنسب للقدر... أو للحظ... أو لزهراء.

في الصباحات، كانت تسمع ضحكات زهراء وهي تروي لكرستيان كيف تفتحت زهرة جديدة، أو كيف انحنى غصن تحت المطر. وكان قلب مولودة يرتجف كلما رأتهما يتحدثان برفقة بعضهما. كانت تتمنى لو تُسمع كلمة رقيقة، نظرة امتنان، أو حتى: "أحسنَتِ يا مولودة".

لكن حياتها كانت تمضي بصمت.

ومع السنوات، أصبحت المزرعة مثل لوحة مرسومة بعناية.

الأشجار بدأت تكبر، والحقول امتلأت بالأخضر، والماء يجري في السواقي مثل موسيقى هادئة.

في المساء، كانت الأسرة تجتمع حول مائدة واحدة: كرستيان متعب من العمل، زهراء راضية تشعر بالامتلاك، ومولودة صامئة، تضع الطعام وتجلس على طرف الكرسي.

كانت تشعر أنها مسؤولة عن نجاح المكان كله، لكنها ليست جزءاً منه بالكامل.

وفي الليل، عندما يعود الجميع إلى غرفهم، كانت مولودة تمشي وحدها في الحديقة، تلمس أوراق الأشجار التي زرعها كرستيان وتهمس في سرّها:

هنا تعب يدي... هنا ذكرياتي... هنا كل عمري الذي لا يراه أحد.

ورغم هذا الحزن الدفين، كانت المزرعة تمنحها شيئاً لا يمنحه البشر:

سكينة... ومساحة للتنفس... ومكاناً لتدفن فيه وجعها دون أن يزعجها أحد.

وهكذا كانت حياة الأسرة في المزرعة:

زهراء ملكة الأرض،

كرستيان سيد العمل،

ومولودة القلب الذي يدقّ في صمت، ويُبقى كل شيء
قائماً دون أن يشعر به أحد.

التبني

كانت المزرعة تنبض بالسكينة، وكأنها تستعد لحدث يغيّر ملامح الحياة فيها إلى الأبد. وبين هدير الأشجار وعبير الأزهار، كانت زهراء تفكر في خطوة قد تضيف دفئًا جديدًا إلى هذا البيت الذي بنته مع كرستيان بكل حب.

في أحد الأيام، اقترحت زهراء على كرستيان أن يتبني فتاة حديثة الولادة تعرفت عليها من خلال إحدى صديقاتها. كانت طفلة لا يتجاوز عمرها شهرًا واحدًا، فقد وضعتها أمها للتبني بسبب ظروف قاسية جعلتها عاجزة عن رعايتها.

استمع كرستيان للاقتراح بتأنٍ وهدوء، ثم وافق دون تردد. كان يشعر أن وجود طفل صغير سيضفي دفئًا جديدًا على المزرعة، وسيملأ قلب زهراء بالحنان الذي تتوق إليه.

بعد أيام قليلة، وصلت الطفلة إلى المزرعة. حملتها زهراء بين ذراعيها وهي تغمرها بنظرة محبة، ثم قررت أن تسميها جميلة. فقد كانت ملامحها جميلة، ووجهها يضيء بنعومة الأطفال الملائكية.

وقف كرستيان يتأملها بانبهار، وظهرت السعادة واضحة في عينيه وهو يرى هذا النور الصغير يدخل بيته. شعر أن حياة الأسرة ستتغير مع قدومها، وأن المزرعة أصبحت تنبض بروح جديدة.

زهراء احتضنتها بحنان الأم التي اختارتها الأقدار،
وكرستيان وقف يراقبهما بدهشة رجل لم يعرف أن قطعة
صغيرة من البشر يمكن أن تُسكن قلبه بهذه السرعة.
ابتسم وهو يرى ضياء وجهها، فأدرك أن هذه الطفلة لن
تغيّر المزرعة فقط، بل ستغيّر حياتهما كلها.

أما مولودة، فقد احتضنت الطفلة بين ذراعيها كما لو أنها
تمسك شيئاً خُلِقَ ليعيد ترتيب الخراب في داخلها.

لم تكن تعرف كيف يلتقي الألم بالرجاء في اللحظة نفسها،
لكن عندما لامست بأناملها خدها الصغيرة أحست أن
هذا الجسد الصغير يحمل ما هو أكبر من نفسه. شعرت
أن الطفلة ليست مجرد رضيع جاء إلى البيت، بل كأنها
رسالة صامتة، كتبتها الحياة بمدادٍ خفي، ووضعتها في
حضانها لتخبرها بأن الفراغ الذي عاشته طويلاً يمكن أن
يُملأ أخيراً.

نظرت مولودة إلى عيني الطفلة الهادئتين، وفي داخلهما
رأت شيئاً لم تفهمه تمامًا:

رأت نفسها.

رأت طفولتها التي لم تُحتَضَن.

رأت سنواتٍ حاولت فيها أن تكون قوية بينما كانت
تبحث عن يدٍ تربّت على كتفها.

همست في قلبها دون صوت:

ربما وجودك يا جميلة ليس صدفة... ربما جئت لتقولي لي
إنني ما زلت أستحق الحب، وأن الفراغ الذي بقي في
صدري كل هذه السنين يمكنه أن يجد شكلاً جديداً
ليزدهر.

ابتسم كرستيان وهو يراقب الطفلة، وكان واضحاً في عينيه
أن هذه الصغيرة ليست مجرد رضيع جاء ليربّي، بل رسالة
من الحياة نفسها: وعدٌ بأن الحب لا يزال موجوداً، وأن
المستقبل يمكن أن يبدأ من جديد، مهما كانت الجروح
عميقة.

أما مولودة، فقد شعرت بشيء لم تشعر به منذ زمن بعيد:
فرحة خالصة بالحياة التي أعادت إليها الأمل. همست
لنفسها، وهي تداعب رأس الطفلة الصغير:

حظك يا جميلة أن تأتي إلى هذا البيت، لأنك أصبحت
الأمل الذي طال انتظاره... الأمل الذي يربطنا جميعاً
ويعيدنا إلى بعضنا البعض.

أحياناً، بعد يوم طويل، كانت الطفلة تغفو وهي تمسك
إصبع كرستيان الصغير بين أصابعها، كما لو كانت تمسك
بحبل يربطها بالأمان.

كان كرستيان، متعباً من العمل في المزرعة، ينام بجانبها،
ويظل إصبعه تحت قبضتها الصغيرة. كان شعوراً غريباً،
خليطاً من المسؤولية والحب، شعوراً لا يُشترى ولا
يُوصف. في هذه اللحظات، كانت جميلة ليست مجرد

طفلة صغيرة، بل رمزًا للطمأنينة والأمل الذي يجمع العائلة.

مولودة كانت تراقب المشهد بصمت، وتبتسم داخليًا، وهي ترى كيف أن هذه اليد الصغيرة تمسك قلب كرستيان قبل أن تمسك إصبعه، وكيف أن حضور جميلة جعل كل شيء يبدو أخف وطأة وأكثر دفئًا.

كل يوم يمر، كانت جميلة تكبر قليلًا، لكن مع كل نمو، كان الحب يزداد عمقًا، وكانت الروابط بين الطفلة والمزرعة، وبين الطفلة والعائلة، تزداد قوة وصلابة، لتصبح جميلة أكثر من مجرد طفلة... إنها مستقبل، وطمأنينة، وعائلة بأكملها.

كانت مولودة تحكي في سرها، تتذكر كل لحظة قضتها مع جميلة، وتبتسم بحزن وفرح في الوقت نفسه. لم تكن معاملتها مع جميلة مجرد علاقة أخت كبرى بأخت صغيرة، بل كانت معاملة أم مع ابنتها، بكل الحنان والاهتمام والحرص.

كانت تأخذها يوميًا إلى المدرسة، تمشي بجانبها، تراقب خطواتها الصغيرة وهي تتعلم، وتعود لتأخذها عند انتهاء الحصص، كأنها تحرس جزءًا من قلبها الصغير في العالم الخارجي.

كانت مولودة تحملها فوق ظهرها وهي تمشي نحو المدرسة. المزرعة والمدرسة كانت تفصل بينهما مسافة

كيلومتر واحد، لكن لكل خطوة فيها كان قلب مولودة يرفرف بالحب والحرص.

كانت تشعر أن هذه المسافة ليست مجرد طريق، بل جسر بين عالمين: عالم الطفلة البريء الصغير، وعالم المزرعة الواسع الذي يربط كل شيء بحياة أكبر وأعمق. ومع كل خطوة، كانت جميلة تتشبث بظهر مولودة، كأنها تعرف أن الأمان لا يُقاس بالكيلومترات، بل بالحب الذي يحمله من يحملها.

في هذه اللحظات، لم تكن مولودة مجرد أخت كبيرة، ولم تكن جميلة مجرد طفلة صغيرة. كان كل منهما مرآة للآخر: مولودة تجد في الطفلة أملاً جديداً يضيء قلبها، وجميلة تجد في حضن مولودة أماناً وحناناً لم تعرفه بعد. وكل يوم كانت هذه المسافة القصيرة تتحول إلى رحلة صغيرة من الحب والصبر والحياة.

مرت الأيام بسرعة مع جميلة، وكبرت الطفلة الصغيرة لتصبح فتاة جميلة. كان شعرها أسود طويلاً ينساب كالليل على ظهرها، وعيناها الكيرتان تحملان براءة وذكاءً لم يخبُ مع مرور الزمن. كان جمالها يفتت القلوب، جمال يسرق النظر ويزرع الإعجاب في كل من يراها.

حرص كرستيان على أن تتلقى جميلة أفضل تعليم، فأرسلها إلى أرقى المدارس، ودرّسها بطريقة تجمع بين الانضباط الفرنسي والحنان الأبوي. كانت تتعلم اللغات،

والثقافة، والعلوم، وتكبر في بيئة تمنحها الفرص التي لم تُتاح لمولودة في صغرها.

جميلة لم تكن فقط طفلة مزرعة، بل أصبحت فتاة عالمية، تحمل في يدها جواز سفر فرنسيًا، ورؤية واسعة للمستقبل، بينما كانت مولودة تراقبها بفخر.

كانت زهراء تقف في فناء المزرعة، وعيناها تتأملان جميلة وهي تمشي بين أشجار اللوز. كانت تبتسم بفخر، وتحدث كل من حولها:

"انظروا إلى جميلة... انظروا كيف كبرت، شعرها الأسود الطويل، وعيناها الكبيرتان، ذكاؤها وثقافتها... هذه الطفلة هي ثمرة جهدي، وعلمي، وحيي لها".

مولودة كانت واقفة على مقربة منها، تراقب المشهد بصمت. شعرت بشيء ثقيل يضغط على صدرها، ألم عميق لم تعرفه منذ زمن. همست في سرها، وكأنها تخاطب قلبها:

"لماذا لم تحبيني يا أمي كما أحببت جميلة؟ لماذا شعرت دومًا أن كل حنانك ومفاخرك كانت لمن ليست أنا؟"

زهراء لم تلتفت، كانت غارقة في إعجابها، في التفاخر الذي يعطيها شعورًا بالقوة والسيطرة. كل كلمة تخرج منها كانت سيقًا صغيرًا يغرسه الألم في قلب مولودة، لكنها لم تظهر ذلك، اكتفت بالمراقبة، مكتفية بألمها الداخلي.

رغم ذلك، شعرت مولودة في أعماقها بشيء آخر: رغبة في الحماية، في منح جميلة ما لم تُمنح هي، في إعادة ترتيب الحب والحنان بطريقة أخرى. كان هذا الصمت بين الأم والمساعدة، بين الجرح والحنان، هو المكان الذي وُلد فيه صبرها، وحكمتها، وروحها الكبيرة التي ستكمل بها قصتها مع جميلة وكرستيان.

في هذه اللحظة، أدركت مولودة شيئًا مؤلمًا وجميلًا معًا: الحب لا يُقاس بالكلمات فقط، بل بالحرص، بالوجود، وبالقدرة على أن تكون الأمان لمن يحتاجك.

زهراء كانت امرأة قوية، صلبة، أحيانًا قاسية، لا تعرف المساومة مع من حولها. مع زوجها كرستيان، كانت تصر على رأيها، وتفرض إرادتها، وكأن كل شيء في حياتها يجب أن يمر عبر حساباتها. لم تكن تُبدي الكثير من الحنان، وكانت أنانية أحيانًا واضحة، حتى مع مولودة، التي كانت تعتني بالمزرعة وتدير أمورها، لكنها لم تشعر أبدًا بالحب الكامل من زهراء.

لكن مع جميلة، كل شيء تغير. الطفلة الصغيرة كانت بالنسبة لها لوحة فنية، قطعة من الجمال والأمل، وكأن حبها لها ينقلها إلى عالم آخر، عالم ناعم وحساس لم تعرفه زهراء منذ زمن. كانت ترى في جميلة ليس فقط الجمال، بل امتدادًا لحلمها الخاص، رمز نجاحها ومصدر فخرها الأبدي.

هذا التباين جعل علاقة زهراء مع حياتها عميقة ومعقدة:
حنانها وحبها لجميلة كان بلا حدود، لكنها لم تمنحه
لمولودة.

تفاخرها وحماسها تجاه جميلة كان يعكس رغبتها في أن
يُرى الآخرون ما صنعت، وكأن جميلة هي مرآة لمجهودها
الشخصي.

في صمتها الداخلي، كان هناك شيء آخر: شعور مختلط
بين الندم، السيطرة، والرغبة في الاستمرار في رؤية جميلة
كمصدر للجمال والنجاح، بينما تظل مولودة تراقب كل
شيء، تتعلم كيف يكون الحب الحقيقي، وكيف يكون
التفاخر مجرد قناع.

رفضت زهراء كل شيء، كل فرصة، كل حلم لمولودة.
رفضت الخطاب، رفضت سفرها إلى فرنسا مع أصدقاء
كرستيان،

رفضت حتى أن يسعى لها كركستيان لبناء حياة مختلفة
خارج المزرعة،

ورفضت كل ما يعني الحرية والمستقبل بعيدًا عنها.
ومع كل رفض، كان شعور مولودة يزداد قهراً مدقعا،
شعور بأن الحياة لم تمنحها شيئاً، وأن قلبها الصغير
محاصر بين رغبات زهراء وأنانية الآخرين.

كانت تقول لنفسها في صمتها:
لو لم تكن جدتي أو كرستيان، لكنت هربت إلى الأبد، ولن
تريني وجه زهراء مرة أخرى.
لكن القدر كتب لها أن تبقى،
أن تكون الحاملة لكل هموم المزرعة فوق كتفيها،
أن تصبح صخرة لا تتحرك، أو ربما لا تتحرك إلا لمن
يستحق.
كرستيان، رغم حبه الكبير لها، كان يتنقل بين المزارع، بين
المشاريع، بين الأرض والبيت والعمل،
كأنه يعيش حياة مزدوجة، حياة لا تكملها إلا مولودة.
ومولودة كانت المزرعة،
كانت قلبها، روحها، عرقها، كل شيء فيها،
تزرع، تسقي، تخطط، تُشرف على كل تفصيلة،
وتتحمل كل مسؤولية وكأنها كل شيء، بينما زهراء وجميلة
هما الأميرتان، يعيشان بين الحنان والترف والاهتمام،
بعيدًا عن كل ثقل العمل.
في صمتها، كانت مولودة تتساءل:
هل سيأتي يوم يرى فيه كل ما فعلته؟

هل سيُحترم تعبها، ألمها، صبرها؟

هل سيعرف الناس أن الحب الحقيقي لا يُقاس بالكلمات،
بل بالعمل، بالجهد، بالتحمل؟

لكن مع كل هذا القهر، كانت مولودة تعرف شيئًا واحدًا:
أنها صلبة، وأنها البقاء، وأنها العمود الفقري لكل شيء
حولها،

وأن العالم لن يمنحها شيئًا، إلا إذا أخذته بيدها.

بعد مجيء أحد الخطّاب، رفضت زهراء.

كان اليوم هادئًا في المزرعة، لكن أصوات الغضب
اخترقت الصمت فجأة.

"لا!" صاحت زهراء بصوت عالٍ كأن الجدران ستنهار،
وهي تشير إلى الباب. "لن أسمح له بالزواج من مولودة!"

كرستيان، محاولًا ضبط نفسه، رفع صوته بهدوء، لكنه
كان مملوءًا بالإلحاح:

"زهراء، لقد كبرت، الفتاة يجب أن تبني حياتها، أن تختار
مستقبلًا... إنها مستعدة، لا يمكن أن نبقىها محبوسة هنا
إلى الأبد."

ابتعدت زهراء عن كرستيان خطوة، عينها مشتعلة
بالغضب، ونبرتها ترتفع أكثر:

"من سيتكلف بالمزرعة؟ من سيهتم بالماشية؟ من سيقرب الخدم؟ من سيأخذ جميلة إلى المدرسة كل يوم؟ من سيعيدها بعد انتهاء الدروس؟ من... من... من...!"

تلعثم كرستيان، محاولاً أن يجد كلمات توقف هذا السيل الغاضب:

"ما هذه الإنسانية يا زهراء؟! ألا يمكن أن نترك لها حق الاختيار؟ ألا تستحق فرصة لتعيش؟"

لكن زهراء لم تهتم، لم تتراجع، لم تنطق بكلمة أخرى.

انتهى النقاش عند هذا الحد، وكأن الجدران نفسها رفضت الاستماع أكثر.

وراء الباب، كانت مولودة تستمع، كل كلمة تُثبت في قلبها الحقيقة الصادمة:

زهراء لم تفكر بها أبداً، لم تمنحها حق الحياة، لم تمنحها الحرية.

حمل قلبها كله شعوراً بالخذلان والوجع.

ذهبت مولودة إلى أسفل شجرة ضخمة، ظلها يظلل الأرض، جلست على العشب، وغاصت في بكاء لا يُسمع إلا في صمت الطبيعة،

تبكي لأن حياتها لم تكن ملكها، تبكي لأن الحب لم يكن لها، تبكي لأنها أدركت أنها ستظل أسيرة للمزرعة، بينما زهراء وجميلة تعيشان في النور بعيدًا عنها.

في صباح اليوم التالي، رأى كرستيان عيني مولودة المنتفختين من التعب والحزن، لم يكن بحاجة إلى كلمات ليعرف أن شيئًا يثقل قلبها. اقترب منها، وجلس على المقعد المقابل، صامتًا لدقيقة قبل أن يبدأ الحديث بصوت هادئ لكنه صادق:

"أرى في عينيك الحزن... وأعرف أنه ليس مجرد تعب. هناك شيء أعمق، شعور بالضغط والقهر..."

توقف قليلًا، ثم تابع، وكأنه يفرغ قلبه:

"زهراء... أنا نية زهراء واضحة، وأحيانًا أشعر أنها تستغلنا جميعًا. تستغلني، تستغلك... وتنسى أن لكل واحد منا قلبًا وروحًا".

نظرت مولودة إليه بصمت، لم تقل شيئًا، لكنها شعرت بالصدق في صوته، بالاعتراف الذي لم يجروا أحد على قوله من قبل.

أخذ كرستيان نفسًا عميقًا، وواصل بصوت أخف قليلًا، لكنه مليء بالصدق:

"أعلم أن حياتك هنا صعبة، وأن كل شيء يقع على عاتقك... أنتِ تتحملين ما لا يُطاق أحيانًا، وأنا... أنا أرى ذلك، وأحاول أن أكون بجانبك، رغم كل شيء. لم أستطع أن أتركك تحملي هذا العبء وحدك".

ابتسمت مولودة بصمت، لم تكن كلمات كثيرة، لكنها كانت كافية لتخفف جزءًا من ثقل قلبها.

ثم اعترف كرستيان، وكأن الكلام يخرج عن إرادته:

"أحيانًا، وأنا مثلك، أشعر بالقهر من زهراء... أشعر أنني مجرد أداة لتحقيق رغباتها، وكأن كل شيء يجب أن يمر عبر إرادتها، حتى ما يخصك... أعلم أنني أراكِ تتحملين كل شيء، وأعلم أن قلبك يتألم بسبب هذا... وأريدك أن تعرفي أنني أشعر بك، وأني معك".

جلست مولودة صامتة، تشعر بحرارة الكلمات، بصدق الاعتراف،

وشعرت لأول مرة أن هناك من يراها كما هي، ليس فقط كذراع للمزرعة، بل كإنسانة تتحمل، تعاني، وتستحق أن يُسمع صوتها ويُقدَّر تعبها.

الحوار لم يكن طويلًا، لكنه عميق،

كلمات قليلة، لكنها محملة بالصدق والحنان والاعتراف بما يُخفي وراء كل صمت وصبر مولودة.

بعد حديث الصباح، شعرت مولودة بشيء غريب يخفف ثقل قلبها.

لم يكن الحب الصريح الذي تمنته من زهراء، ولم يكن التفهم الكامل، لكنه كان اعترافًا بالواقع، ومواساة من شخص يراها كما هي.

خرجت مولودة إلى المزرعة، الهواء البارد يلامس وجهها، والحقول الممتدة أمامها تلمع تحت أشعة الشمس.

لم تكن قد توقعت أن كلمات كرستيان ستترك أثرًا عميقًا هكذا، لكنها شعرت بأن هناك من يساندها في صمتها، من يشاركها العبء، من يرى كل ما تتحمله بصمت.

بدأت جولتها بين الأشجار والماشية، وكل حركة كانت محسوبة بعناية، لكن الآن، كان هناك شعور مختلف يرافق كل خطوة.

لم يعد كل شيء عبئًا ثقيلًا فقط، بل تحديدًا يمكنها مواجهته، قوة يمكنها أن تتحكم بها.

صارت أكثر حرصًا على الخدم، على توزيع المهام، على متابعة كل زاوية في المزرعة، لكنها الآن تشعر بأنها ليست وحدها.

في الداخل، شعرت مولودة بجدس غريب، أنها بدأت تتشكل كصخرة المزرعة الحقيقية، شخصيتها تتقوى تدريجيًا:

تحمل المسؤوليات الكبرى بلا شكوى،

تراعي كل تفاصيل حياة وحياة،

تدير المزرعة بحزم، لكنها تعرف أن قلبها الآن يحظى
بشيء من الدعم.

وفي الوقت نفسه، لم تتوقف دموع الأمس تمامًا، لكنها
صارت دموع صمت، دموع قوة مختبئة خلف جدية
العمل.

كان قلبها يهمس لها:

"لقد رآك أحدهم، شعر بقهره، وفهمك... الآن أنتِ قادرة
على الصمود أكثر، على أن تصبحي أكثر مما كنتِ عليه".

حتى كرستيان لاحظ التغيير لاحقًا:

كانت مولودة أكثر اتزانًا في تصرفاتها، أكثر حكمة، وأكثر
قدرة على تحمل الأعباء الثقيلة التي لطالما كانت تثقل
ظهرها.

ومع ذلك، كان هناك دائمًا شيء واحد يربط بينهما
بصمت: اعترافه بها وبجهداها، ومواساتها بلا شروط، وهي
تعرف أن قلبه معها.

في هذا الصباح، ولأول مرة منذ زمن طويل، شعرت
مولودة أن المزرعة لم تعد مجرد واجب، بل مساحة

يمكنها أن تتحكم فيها، وأن تكون فيها هي نفسها، رغم كل القيود والقهر الذي فرضه عليها الآخرون.

كانت زهراء تتفاخر بابنتها جميلة في كل مكان، تمدح جمالها وذكائها ونجاحها، وتكرر أن ابنتها جميلة ثمرة تعبها ورعايتها.

لكن الحقيقة كانت مخفية خلف الستار، حقيقة لم ترها زهراء، ولم تحاول أن تراها.

فمولودة، رغم كل ذلك، كانت تقوم بكل شيء مع جميلة بحب، كأنها ليست أختها الصغرى فقط، بل مثل ابنتها.

كانت تأخذها إلى المدرسة كل صباح، تعيدها مساءً، تحملها على ظهرها حين تتعب، تهدئ خوفها حين تبكي.

كل لحظة معها كانت مليئة بالحنان، وكل ابتسامة كانت تعكس المستقبل الذي تراه في عيون جميلة.

ومع كل ذلك، كانت مولودة تشعر بسعادة حقيقية لأنها ترى جميلة تحظى بالحب الذي افتقدته هي، الحب الذي لم تمنحه لها زهراء.

كانت هذه العلاقة صامته، لكنها أعمق من كلمات، أصدق من أي اعتراف، ودفئها كان يكفي لمواجهة كل قسوة هذا العالم.

أما زهراء، فكانت تسير بفخر، ترفع رأسها، وتستعرض ابنتها جميلة كإنجاز شخصي، بينما مولودة تقف في الخلف، صامتة، تحمل تعبًا لا يُرى، وتشاهد كيف يُنسب كل ما فعلته من حب وعناية لامرأة لم تمنحها سوى كلمات تفاخر.

هكذا، عاشت مولودة بين الحنان الذي تمنحه، والاعتراف الذي لا يصل، والحقيقة الموجعة التي لا يراها أحد، لكنها كانت تعرف شيئًا واحدًا: أن حبها لجميلة أكبر من أي قسوة، وأصدق من أي تفاخر.

مرت سنوات، سنوات فرضت فيها الحياة مساراتها رغم كل رفض زهراء.

زهراء كانت دائمًا ترفض أي خطّاب لمولودة، تصر على أن تبقى أسيرة المزرعة، رهينة الواجب والمسؤولية.

لكن القدر كان أقوى، وكان للصبر نهايته.

تزوجت مولودة، وفجأة صار قلبها جزءًا من عالم جديد.

رغم الزواج، لم تشعر بالسعادة الكاملة، لم تشعر بالاستقرار، فهناك دائمًا فجوة خلف كل ابتسامة، ظل من سنوات القهر، ظل رفض زهراء، ظل من الحنين والصمت الطويل.

رُزقت مولودة بطفلتين، ضحكاتهما ملأت البيت لأول مرة منذ زمن.

كانت كل حركة صغيرة لهما، كل ابتسامة، كل صرخة طفولية، تجعل قلبها ينبض بالأمل من جديد.

لكن السعادة كانت هشة، والأيام تمر بسرعة على وقع هموم المزرعة ومسؤولياتها.

ثم جاء القدر، جاء كما لا يُتوقع، وخطف الزوج فجأة. لم يُترك أي أثر، لم يُسمع أي خبر، كأن روحه ذهبت بعيداً، بلا وداع، بلا تفسير.

البيت صامت، والأطفال ينظرون إلى الأم التي تحاول أن تكون قوية، لكنها تخفي الدموع خلف وجه صارم.

مولودة لم تعرف: هل مات؟ هل اختفى؟

كانت تجلس لساعات طويلة، تتأمل في السماء، تتساءل عن سبب هذا القدر.

تلمس عينيها طفلتيها، تشعر بأن الحب أصبح أمانتها الوحيدة، وأنها تحمل كل شيء: المزرعة، جميلة، الأطفال، وذكريات سنوات الصبر.

كل لحظة معهن كانت تعويضاً عن غياب الحب الكامل، عن فقد الزوج، عن غياب الاعتراف بمجهوداتها من زهراء.

تعلمت أن القوة الحقيقية ليست في رفض الألم، بل في القدرة على المضي قدماً رغم كل شيء.

أن الحب يظهر في العطاء، في الحنان، في الصبر الذي يتجاوز الحزن.

ومع كل صباح جديد، كانت مولودة تنهض، تحمل مسؤولية الجميع، وتملأ البيت بالحب، حتى لو ظل السؤال الأكبر بلا جواب: أين ذهب الزوج؟

ظل الغموض يلتف حول كل ذكرى، وكل كلمة لم تُقل، وكل دمة اختبأت خلف ابتسامة، مما جعل حياة مولودة أكثر صلابة، وأكثر قدرة على مواجهة العالم، وأكثر عمقًا في فهم الألم والحب معًا.

في صباح أحد الأيام، لاحظ كرستيان عيني مولودة المنتفختين من البكاء. جلس بجانبها، أمسك يدها بلطف، وحاول أن يخفف عنها هذا الألم الكبير الذي لم تستطع الكلمات التعبير عنه.

كرستيان:

ابنتي، أعلم كم هو صعب عليك، أعلم حجم الخسارة والفراغ الذي تشعرين به، لكنك لست وحدك بعد اليوم.

مولودة:

كرستيان، أشعر أن حياتي انهارت، أن كل شيء سقط من يدي، لم أعد أرى طريقًا.

كرستيان:

ابنتي، أنا هنا. سأقف بجانبك، سأكون لك ولطفلتك كل شيء، سأحميكن، سأواسيكن، سأكون السند الذي تحتاجينه في كل لحظة ألم أو خوف.

مولودة:

أشعر بالخذلان، أشعر بالوحدة، أشعر أن القدر لا يترك لي أي فرح، لم أشعر من قبل أن هناك من يفهمني هكذا.

كرستيان:

ابنتي، أنتِ لم تكوني وحدك يومًا، لم تكوني بلا سند. سأكون الأب والجد والحامي لكل لحظة من حياتكن، سأقف بجانبكن مهما حدث، سأحتوي كل دمة، سأشارك كل خوف.

مولودة:

كرستيان، لا أعلم كيف أستطيع مواجهة كل هذا الألم وحدي، كيف أحمي نفسي وطفلي وأظل صامدة.

كرستيان:

ابنتي، لا تحتاجين لأن تتحملي كل شيء بمفردك، أنا هنا، سأساندك، سأحمي قلبك وقلب الطفلتين. لن تعرفا الحرمان، لن تشعرا بالوحدة، لن تفتقدا الحب والحنان. سأكون لكن كل شيء.

دموع مولودة تتدفق بلا توقف.

بلا توقف.

بلا توقف.

كانت علاقة كرستيان برييبته مولودة، وجميلة، والطفلتين علاقة تنسجها الرحمة لا القرامة. لم يكن أبًا بالدم، لكنه كان يحمل في قلبه ما هو أثمن من الدم، وكان يقدّم للطفلتين ما لم تقدمه الحياة لكثير من الأطفال: الأمان.

كان كرستيان يجلس على الكرسي الخشبي العريض عند مدخل المزرعة، يحمل الطفلتين بين ذراعيه، واحدة تستند على كتفه، والأخرى تمسك قميصه كأنها تتشبث بأمان العالم كله. كان يتحدث إليهما بصوت هادئ، يضحك لهما، يلمس خديهما بحنان يفوق حنان كثير من الآباء الحقيقيين.

مولودة، من بعيد، كانت تراقب المشهد بصمت طويل. لم تصدر عنها كلمة، فقط نظرتها كانت تتكلم... نظرة تشبه اعترافًا حزينًا لشخص يحدث نفسه.

شيء ما في المشهد هزّ قلبها.

كانت ترى نفسها فيهما. الطفلة التي كانت ذات يوم... تلك التي كانت تركض خلف كرستيان وهي صغيرة، تبحث في صوته عن دفء لم تجده في حضن أمها. الطفلة التي

كانت تتعلّق بكمّ قميصه عندما تخاف، وتبتسم عندما
يربت على رأسها.

لكنها، حين كانت طفلة، كانت تحصل على نصف الصورة
فقط.

أما اليوم، فكانت ترى الصورة كاملة.

كرستيان لا يعامل الطفلتين كحفيدتين فقط، بل
كقطعتين من قلبه.

كان يتصرف معهما كما لو أن القدر منحه فرصة ليعيد
تشكيل حنان كان يظن أنه ضاع مع العمر.

كانه يعوّض طفلة قديمة عاشت بنقص ويكمّله في هذه
الصغيرة وهذه.

ابتسمت مولودة، ابتسامة فيها امتنان وفيها وجع دفين.

الذكريات عادت، مثل موجة قديمة ضربت صدرها ثم
انسحبت ببطء.

قالت في سرّها:

"الحب يا كرسّتيان ليس بالنسب.

أنت أثبت لي أن الأبوة ليست دمًا، بل قلبًا".

كانت تشعر أن بناتها محظوظات، ليس فقط لأن لديهن
جدًا يفهم معنى الحنان، بل لأنهن سيعرفن في طفولتهن
ما كانت تتمنى هي أن تعرفه.

ولو هلة، شعرت مولودة أن جرح طفولتها يخفّ.

ليس لأنه اختفى، بل لأن يدًا حنونة كانت تُربت عليه الآن
عبر بناتها.

الميلاد الثاني: لكرستيان

اعتناق الإسلام وأصبح اسمه

مصطفى

لم يكن أحد في المزرعة يتوقع أن يتغير شيء كبير في حياة كركستيان. كان يعيش بينهم كما لو كان فردًا من العائلة، لكن دائمًا بشعور خفيف بأنه غريب لا ينتمي بالكامل. رجل جاء من بلد بعيد ووجد نفسه وسط حياة لا تشبه حياته الأولى، لكنه تعلّق بها رغم ذلك.

زهراء كانت أكثر من يعرف هذا الشعور. كانت ترى في صمته شيئًا يشبه الوحدة، وتشعر أنه رغم السنوات التي قضهاها بينهم ما زال واقفًا عند حافة العائلة وليس في داخلها. لم تكن متدينة بشكل مبالغ فيه، ولا كانت ممن يعظون أو يرفعون الخطب، لكنها قالت له ذات صباح بسيط، وهي تضع إبريق الشاي أمامه:

ألا تفكر أن تدخل في ديننا؟ ليس لأجل أحد، بل لأجلك أنت، حتى لا تبقى واقفًا في منتصف الطريق.

قالتها بهدوء، بلا ضغط، بلا محاولة إقناع. مجرد اقتراح عابر خرج من قلب امرأة صعبة، لكنها تعرف كيف تلمس نقطة داخل الإنسان من دون جهد.

كرستيان لم يجب فورًا. بقي ينظر إلى يديه طويلًا، وكأن السؤال فتح شيئًا كان مغلقًا منذ سنين. لم يشعر أنه يترك شيئًا وراءه، ولم يشعر أنه يدخل شيئًا جديدًا بالقوة. فقط أحس للمرة الأولى أن هناك بابًا لو فتحه، قد يتوقف داخله ذلك الإحساس القديم بالغربة.

مولودة سمعت بالخبر من زهراء نفسها. لم تقل شيئًا، لكنها شعرت بشيء يشبه الدفء ينتشر في صدرها. كركستيان الذي حمل طفولتها بيده، الذي واساها أكثر من مرة، الذي كان أقرب إليها من الأب الحقيقي، سيحمل الآن اسمًا من بيتها. كأن القدر يعيد تشكيل حياتها بطريقة هادئة ودقيقة.

جميلة نظرت إليه يومها نظرة طويلة. لم تسأله لماذا ولا كيف، فقط ابتسمت.

في اليوم الذي ذهب فيه لينطق الشهادة، لم يكن المكان مزدحمًا، ولم تكن هناك احتفالات. رجل بسيط يقف أمام فقيه بسيط ويتلو كلمات قصيرة، لكنها وقعت في قلبه مثل ارتياح مفاجئ. حين خرج من الغرفة شعر أن الهواء أخف، وأن العالم كله كامل بطريقة لا يعرف وصفها.

عاد إلى المزرعة يحمل وثيقة الإسلام في جيبه، ليس بفخر ولا بخوف، بل بشعور يشبه ولادة هادئة، ميلاد داخلي لا يراه أحد. زهراء فرحت بطريقتها، فرحة صغيرة مخبأة في حركة يدها وهي تقدم له الطعام.

اقتربت مولودة منه وقالت له بصوت خافت:

مبروك عليك يا كرستيان.

ثم ابتسمت وقالت:

أقصد يا مصطفى.

لأول مرة، شعر أن اسمه الجديد يشبهه. لم يشعر أنه ترك اسمه القديم خلفه، بل شعر أنه أضاف طبقة جديدة لروحته، طبقة دافئة لم يعرفها من قبل.

في المساء، أعدوا حفلة صغيرة. تمر وشاي وقليل من الزغاريد. لم يكن الحفل دينيًا، بل احتفالًا بحياة جديدة.

ومع كل ضحكة كانت تمر، كان مصطفى يشعر أنه يقترب أخيرًا من المكان الذي ظل واقفًا عند بابه لسنوات طويلة.

حين نطق كرستيان بالشهادة، لم يشعر أنه يغيّر دينًا فقط، بل كأنه يعيد ترتيب عالمه الداخلي.

لم يكن يبحث عن هوية جديدة، بل عن سكون... عن مكان يقف فيه دون أن يكون منتميًا بين عالمين.

كان يشعر دائماً أنه غريب على الورق، قريب بالقلب.
والتحوّل لم يكن نتيجة نقاش طويل، ولا ضغط، ولا
إلحاح؛

كان بذرة صغيرة زرعته زهراء بكلمة عابرة، فكبرت
بصمت داخله حتى أصبحت قراراً هادئاً يشبه الاستسلام
الجميل.

استسلام لطمأنينة كان يراها في عيونهم منذ سنوات.
زهراء لم تكن ترى في الأمر شيئاً فقط.
كانت ترى فيه اكتمال شكل العائلة.

أرادت أن يحمل الرجل الذي وقف معها بكل تفاصيل
الحياة اسماً ينتمي لبيتها،

وكان الاسم القديم كان يذكرها أن جزءاً منه بقي بعيداً،
وهي امرأة تخاف البعاد، وتكره النقصان.

حين اعتنق الإسلام، شعرت بانتصار صغير لا تعترف به.
انتصار يهدئ خوفها من الزمن وفقدان الأشياء.

كانت تقول في داخلها:

الآن أصبح لنا... تماماً.

أما مولودة، فشعرت أن الرجل الذي أحبها منذ طفولتها،

الرجل الذي كان يربط شعرها في الصباح،
والذي كان يحمل عنها أثقال الحياة،
والذي كان يراها ابنة لا ربيبة،
صار الآن يحمل اسمًا يشبه أسماء الرجال الذين تعرفهم.
شعرت بقرب جديد...
قرب دافئ يشبه أن يعود والدٌ غائب دون أن يغيب يومًا.
وكان داخلها صوت صغير يقول:
لقد اختار أن يكون واحدًا منا... لأنه أحبنا حقًا.
جميلة لم تفهم كل ما يجري.
لكنها شعرت أن البيت تغير بطريقة ناعمة،
وأن شيئًا ما أصبح أكثر دفئًا.
وتشعر أن هذا اليوم سيبقى محفورًا في ذاكرة العائلة،
حتى لو لم تفهم سببه.
وفي عمق المشهد،
كانت هناك حقيقة واحدة تتكوّن ببطء:
اعتناق كرستيان للإسلام لم يكن حدثًا دينيًا فقط،

كان ولادة جديدة لروح كانت تبحث عن مكان تتكى عليه.
مكان لا يطالبها بالانتماء...
بل يحتضنها كما هي.

تبنّي طفلة: وسام

كان البيت يعيش على إيقاع متسارع؛ جميلة تكبر وتشتد ملامح جمالها، وبنات مولودة يملأن الأرجاء بحركة طفولية، وكرستيان، الذي أصبح مصطفى، يحاول أن يبقى سنًا للجميع رغم التعب الذي يتسلل إلى جسده.

وسط هذا الزخم، جاء قرار زهراء بتبني طفلة يتيمة. لم يكن قرارًا عابرًا، بل خطوة تعكس خوفها العميق من الوحدة التي بدأت تقترب منها كلما سمعت حديث جميلة عن السفر إلى فرنسا ومتابعة الدراسة هناك.

خافت زهراء أن يغادرها الجميع، خافت أن تستيقظ يومًا فلا تجد أحدًا يملأ فراغ البيت أو يخفف ثقل الأيام. كانت المزرعة واسعة، والليل طويل، ولا شيء يربطها بالحياة سوى وجود هؤلاء حولها.

عندما اقترحت جميلة أن يتبنوا الطفلة اليتيمة، التي كان عمرها ستة أشهر، كانت الفكرة بالنسبة لزهراء مثل يد تُمد لإنقاذها من عزلة قادمة، فوافقت دون تردد. لم تكن تفكر في المسؤولية بقدر ما كانت تفكر في البقاء، وفي ملء صدع داخلي لم تعترف به.

وافق مصطفى هو الآخر، ولكن بدافع مختلف. رأى في الفتاة الصغيرة انعكاسًا بعيدًا لطفولته، عندما دخل هذا البلد لأول مرة بلا جذور ولا هوية مستقرة. كان يشعر أن

الطفلة تحتاج إلى بيت يحتويها أكثر، فقبل بها بقلبٍ لم يتعلم الرفض يومًا.

جاءت الطفلة إلى المزرعة. كانت صغيرة جدًا، لا تتجاوز ستة أشهر، نحيلة، وتحمل في عينيها خوفًا قديمًا. اختارت لها زهراء اسم "وسام"، اسمًا قويًا، كأنها تمنحها شرف البداية، وتقول لها بلا كلمات إنها أصبحت جزءًا من هذا البيت.

في تلك اللحظة، شعر الجميع بنوع جديد من الهدوء، هدوء يشبه الهواء الذي يغيّر رائحة الغرفة عندما يدخل من نافذة ظلت مغلقة طويلًا.

مولودة رأت المشهد بتعقيد داخلي. لم تشعر بالغيرة، ولم تحسد. لم يكن في قلبها إلا شعور بالحنان والفهم لمعنى أن تكون الطفلة بحاجة إلى من يحميها ويحتويها. كانت تراقب وسام بعيون هادئة، وكأنها تراها امتدادًا صغيرًا للبيت، وليست منافسة على الحب أو الاهتمام. ابتسمت لنفسها وهي تدرك أن الحنان الذي لم تحصل عليه كاملاً يمكن أن يتوزع على آخرين دون أن ينقص منها شيئًا.

كان البيت يمتلئ بالحياة بطريقة لا تشبه الماضي. مولودة تحتضن البنات ووسام وجميلة، والضحكات الصغيرة تنتشر في الممرات كما لو أنها تعيد تشكيل الجدران من الداخل، تجعلها أكثر دفئًا وأقل قسوة، أكثر إنسانية، وكأن المكان يتعلم الحب من جديد مع كل يوم يمر.

مصطفى كان يقف أحياناً في صمت طويل، لا يشارك الكلام، لكنه يشارك الشعور. يرى هذا الامتلاء حوله، ويشعر أن شيئاً في داخله يُشفى ببطء. لم يكن شفاءً كاملاً، بل طبقة جديدة تُضاف فوق جراح قديمة، جعلته أكثر هدوءاً وأكثر صمتاً.

زهراء كانت في مكان آخر من هذا العالم، داخل البيت وخارجه في الوقت نفسه. مزاجها متقلب، صراخها حاضر، وقسوتها تتسرب إلى كل زاوية، كأنها تريد أن تفرض وجودها بالقوة حين لا تجد ما يمنحها الطمأنينة. لم تكن ترى الحنان الذي يملأ البيت بالطريقة نفسها. كانت ترى أن السيطرة هي الشكل الوحيد للبقاء.

ومع ذلك، كان مصطفى يلاحظ التناقض بين ما يعيشه في الداخل وما يراه في الخارج. الحنان يتدفق بين مولودة والأطفال والبيت كله، بينما القسوة تأتي من جهة واحدة فقط، فتخلق صداماً صامتاً بين عالمين داخل المكان نفسه.

كان يتذكر طفولته أحياناً، ذاكرة بعيدة تشبه الضباب. طفل يبحث عن دفء لا يأتي، عن صوت أم لا يبقى، عن يد تمسكه دون شرط. حين دخل هذا البيت أول مرة، كان يظن أنه وجد شيئاً يشبه العائلة، لكن الزمن كشف له أن ما يبحث عنه أعمق من مجرد وجود، كان يبحث عن احتواء لا يرتبط بالمصلحة ولا بالسيطرة.

طمع يومًا أن يجد عند زهراء ذلك الحنان الذي يعوضه
عن الفقد، لكنه اكتشف أن قلبها لا يعطي بسهولة.
طماعة لا غير، فقط. كانت تحكم أكثر مما تشعر، تملك
أكثر مما تحتضن، تترك المسافة بين الناس كأنها حاجز
أمان لها وحدها.

في لحظة تأمل طويلة، وقف ينظر إلى مولودة وهي
تضحك مع الأطفال، إلى جميلة وهي تتحرك بخفة بين
الصغار، إلى وسام الصغيرة التي تتعلم الحياة على إيقاع
هذا الدفء. شعر بشيء يشبه الانهيار الداخلي، لكنه كان
انهيارًا صامتًا لا يُرى.

همس في نفسه:

آه يا مولودة، لو لم تكوني أنتِ والبنات وجميلة، لما
بقيت هنا. لا، كنت رحلت، لا، كنت رجعت إلى شارتر.

كان صوته الداخلي يحمل قهراً دفيئًا وامتنانًا أكبر. كان
يشعر أن هؤلاء هم السبب الوحيد الذي يجعله مستمرًا.

ثم أغمض عينيه للحظة، ورأى أمه كما لم يرها من قبل،
ليس كما كانت، بل كما كان يحتاجها هو. رأى فيها صورة
الحنان الأول الذي لم يكتمل، وترك فيه فراغًا لا يُملأ
بسهولة. حين فتح عينيه، عاد الواقع، لكنه لم يعد كما
كان.

مولودة كانت تراقبه بصمت، تفهم ما لا يُقال، تشعر أن هذا الرجل لا يعيش فقط معهم، بل يعيش لأجلهم، كأنهم أصبحوا معنى حياته الأخير. كانت ترى في صمته أبوة أعمق من الكلام، وفي حضوره حماية لا تُطلب، بل تُمنح دون حساب.

أما الأطفال، فكانوا يعيشون في عالمهم البسيط. ضحكاتهم تملأ البيت دون أن يفهموا ثقل ما يجري حولهم. كانوا النور الذي يمنع الظلام من التوسع أكثر في المكان.

وفي كل هذا التداخل بين الحنان والقسوة، كان مصطفى هو النقطة الثابتة. كان يعرف في أعماقه أن هذا البيت، رغم كل شيء، أصبح معناه الحقيقي، وأن الحب الذي يعطيه ليس ترفاً، بل ضرورة للبقاء.

وفي الليل، حين يهدأ كل شيء، حين تنام الضحكات الصغيرة ويصمت البيت قليلاً، كان يكرر لنفسه بصوت داخلي خافت:

سأبقى لهم الصخرة. سأبقى لهم الأب الذي لم أجده. سأحميهم من كل ما لم أستطع حمايته من نفسي يوماً.

وكان ذلك يكفيه ليبقى.

بدأت جميلة تكبر في صمت جميل، يشبه الضوء الذي لا يحتاج إلى ضجيج.

أصبحت فتاة مراهقة، هشة المشاعر، مختلفة التفكير، عنيدة أحيانًا.

كانت تحمل في داخلها ملامح مختلفة عن البيت، رغبة في حياة أوسع من حدود المزرعة، وأفقًا أبعد من الجدران التي اعتادت عليها.

وفي أحد الأيام، دخل رجل إلى حياتها. رجل لم تكن زهراء تراه مناسبًا، لم تكن تعرف فيه ما يطمئنها، كانت تنظر إليه بعين الحذر، لا بعين الأم ولا بعين القبول. كان بالنسبة لها غريبًا عن المعايير التي تفرضها، وعن المستقبل الذي تخطط له لابنتها.

لكن جميلة لم تكن ترى ما تراه زهراء. كانت ترى فيه شيئًا آخر، مساحة من الحرية، صوتًا هادئًا مختلفًا عن صخب البيت، وإحساسًا بأنها لأول مرة تختار دون خوف.

حين علمت زهراء برغبة الزواج، انفجرت في رفض واضح وصارم. لم يكن رفضًا عابرًا، بل موقفًا حادًا يخرج من طبيعتها القاسية التي لا تقبل بسهولة أن يُختار شيء خارج إرادتها. ارتفع صوتها في البيت كما اعتاد الجميع أن يسمعه، صراخًا يسبق القرار، لا يعقبه نقاش.

كانت ترى أن جميلة ما زالت تحتاج إلى حماية، وأن هذا الرجل لا يليق بالمستقبل الذي رسمته لها، لكن خلف هذا الرفض كان خوف آخر، أعمق من الاعتراف: خوف من فقدان السيطرة على كل من حولها.

مصطفى وقف صامتًا هذه المرة، لم يدخل في الصراع مباشرة. كان ينظر إلى جميلة وإلى زهراء، وكأن قلبه يعيش بين اتجاهين: أحدهما يريد أن يحمي هدوء البيت، والآخر يفهم معنى أن يختار الإنسان حياته بنفسه.

مولودة كانت تراقب بصمتها المعتاد. لم تتكلم، لكنها شعرت أن جميلة وصلت إلى لحظة لا يمكن إيقافها، لحظة تبدأ فيها الحياة الحقيقية خارج حدود المزرعة. وحبها لذلك الرجل أعمى بصيرتها.

جميلة بدورها لم تكن تقاتل بصوت مرتفع. كانت هادئة بشكل يزعج زهراء أكثر من الصراخ. كانت تعرف ما تريد، وتعرف أن قلبها لم يعد يعيش في المكان القديم. كان القرار داخلها ثابتًا رغم كل العواصف.

في إحدى الليالي، جلس مصطفى وحده يتأمل البيت من حوله. تذكر كيف دخل هو نفسه هذا المكان يومًا بلا جذور واضحة، وكيف كان يبحث عن القبول أكثر من البحث عن الذات.

همس في داخله أن الحياة لا يمكن أن تُبنى على التحكم وحده، وأن الحب حين يتحول إلى تملك يفقد معناه.

وفي قلبه شعور خافت بالحزن، لم يكن على جميلة فقط، بل على زهراء أيضًا، تلك المرأة التي لا تعرف كيف تحب دون أن تخاف، وكيف تعطي دون أن تسيطر.

لكن رغم كل شيء، كان يعرف أن جميلة لن تتراجع، وأن هناك أقداراً تُولد داخل الإنسان قبل أن تُكتب في الخارج.

ومع اقتراب القرار، كان البيت كله يقف على حافة تحول جديد، كأن زواج جميلة ليس مجرد حدث، بل بداية انقسام بين ما يُراد فرضه وما يُراد عيشه.

وفي صمت ثقيل، كان الجميع يشعر أن شيئاً كبيراً على وشك أن يتغير إلى الأبد.

لم يتغير قرار جميلة رغم كل ما دار في البيت. كان في داخلها شيء ثابت لا يهتز، كأنها لأول مرة تمسك حياتها بيديها دون انتظار موافقة أحد، وكأنها خرجت من دائرة الصمت التي اعتادت أن تدور فيها لسنوات داخل هذا البيت.

زهراء كانت أكثر حدة من أي وقت مضى. رفضها لزواج جميلة لم يكن مجرد رأي، بل محاولة للتمسك بكل شيء كما هو، كأنها تخاف أن ينفلت منها العالم قطعة بعد أخرى. لكن صراخها هذه المرة لم يعد يغيّر شيئاً، كان يرتفع في المكان ثم يعود إليها محملاً بفراغ أكبر.

مصطفى كان يقف في المنتصف بين الجميع، لا يريد كسر زهراء ولا يريد إيقاف جميلة. كان يشعر أن البيت الذي عرفه بدأ يتغير من الداخل، لم يعد الهدوء هو ما يحكمه، بل صراع خفي بين الخوف والرغبة في الحياة.

مولودة كانت تراقب بصمت طويل، لا تتدخل لكنها تفهم كل شيء، ترى في جميلة شيئًا جديدًا لم يكن موجودًا من قبل، جرأة هادئة تجعلها تقف أمام زهراء دون ارتجاف، وكأنها لأول مرة تقرر أن تكون لنفسها.

وفي إحدى اللحظات، حين ارتفع صوت زهراء مجددًا داخل البيت، كان مصطفى يراقب المشهد بصمت ثقيل. لم يكن صمته ضعفًا، بل إدراكًا متأخرًا أن الحب حين يتحول إلى سيطرة يفقد معناه.

اقترب منها بهدوء، وصوته كان منخفضًا لكنه واضح، قال إن هذا قرار جميلة وليس معركة داخل البيت، لكن كلماته سقطت في الفراغ؛ لأن زهراء لم تعد تسمع كما كانت من قبل، أو ربما لم تعد تريد أن تسمع.

في الليل، جلس مصطفى وحده. البيت ساكن من الخارج، لكن داخله كان مزدهمًا بالأسئلة. يفكر في جميلة التي بدأت تختار طريقها، وفي زهراء التي تخاف أن تفقد السيطرة على كل شيء.

وهمس لنفسه بمرارة هادئة أن هذا البيت لم يعد كما كان. كل واحد فيه بدأ يذهب نحو نفسه، نحو قراراته، نحو مصيره الخاص.

وفي مكان آخر، كانت جميلة صامته، ثابتة، تستعد لخطوة تشبه الخروج من مرحلة كاملة من حياتها، لا

مجرد زواج، بل انتقال نحو عالم جديد لا مكان فيه للخوف القديم.

كانت الليلة ساكنة على غير عاداتها، حتى الريح التي تمر بين الأشجار بدت كأنها تخفف خطواتها كي لا توقظ شيئاً نائماً في القلوب. جلست جميلة قرب النافذة، تنظر إلى ظلام الحقول الممتدة أمامها، كأنها ترى في العتمة طريقاً لا يظهر إلا لمن ضاق به المكان.

اقتربت مولودة وجلست إلى جوارها بصمت يعرف كيف يرافق أكثر مما يعرف كيف يسأل.

قالت مولودة بعد لحظة:

- أراك بعيدة يا جميلة، كأنك هنا بجسدك فقط.

ابتسمت جميلة ابتسامة خفيفة، لا فرح فيها ولا حزن، ثم قالت:

- لأنني بالفعل بعيدة.

أحياناً يكون الإنسان داخل المكان، لكن روحه سبقته إلى مكان آخر، فأنا روحي مع ذلك الرجل.

نظرت إليها مولودة طويلاً، ثم سألت بهدوء:

- ما الذي ينقصك هنا؟

تنهدت جميلة، وأبقت عينيها معلقتين في الخارج:

- لا شيء ينقصني، وهذا هو أكثر ما يخيفني.
حين لا ينقصك شيء، ومع ذلك تشعر أنك تختنق،
تعرف أن المشكلة ليست في الأشياء، بل في الروح.
سكتت قليلاً، ثم أضافت:

- المزرعة ليست أرضاً فقط.

إنها حياة كاملة مرسومة سلفاً:

نفس الطرق، نفس الوجوه، نفس الخوف، نفس القرارات
التي يتخذها غيرك، ثم يطلبون منك أن تسميها قدرك.
خفضت مولودة رأسها، كأن الكلمات أصابت مكاناً تعرفه
جيداً.

قالت جميلة بصوت أعمق:

- أنا لا أكره هذا المكان.

فيه طفولتي، وفيه وجوه أحببتها، وفيه أنتِ.
لكنني أخاف أن أبقى فيه حتى أنسى أن لي حياة أخرى
ممكنة.

رفعت مولودة عينيها نحوها:

- وهل تظنين أن العالم خارج المزرعة أكثر رحمة؟

ابتسمت جميلة هذه المرة بمرارة لطيفة:

- لا أبحث عن الرحمة.

أبحث عن حب، عن النصف الآخر.

ساد بينهما صمت ثقيل، صمت من يعرف أن بعض الكلمات لا تُقال إلا مرة واحدة في العمر.

- أنا لا أريد أن أهرب من المزرعة.

أريد فقط ألا تتحول المزرعة إلى قفص جميل.

شعرت مولودة أن الكلمات دخلت قلبها كما يدخل الضوء من نافذة منسية.

قالت بحنان ممتزج بالحزن:

- أخاف عليك من هذا الرجل.

ردت جميلة بهدوء ناضج:

- وأنا أخاف أن أخسر حب هذا الرجل.

هناك خوف يحفظ الإنسان، وهناك خوف يدفنه حيًا.

طأطأت مولودة رأسها، ثم قالت:

- وإذا رحلت، ماذا سيبقى لك من هنا؟

نظرت جميلة إلى البيت، إلى الجدران، إلى الحقول، إلى الليل الطويل الذي شهد طفولتها، ثم قالت:

- سيبقى كل شيء.

لكن سيبقى في مكانه الصحيح:

ذكرى في القلب، لا قيدًا في القدمين.

في تلك اللحظة، فهمت مولودة أن جميلة لم تعد تسأل الإذن، بل تعلن ميلادها الخاص، وأن بعض الرحيل لا يكون خيانة للمكان، بل وفاء للنفس.

جاء يوم زواج جميلة كأنه يوم لا يشبه باقي الأيام. بيت المزرعة امتلأ بالحركة والناس والأصوات، لكن خلف هذا الازدحام كان هناك توتر خفي يمر بين الوجوه دون أن يُقال. جميلة كانت هادئة بشكل غير معتاد، كأنها تعيش اللحظة من الداخل فقط، بينما الخارج يتحرك دون أن يمسّها كثيرًا.

زهراء كانت مختلفة تمامًا، لم تستطع أن تخفي رفضها، كانت تنظر إلى العريس بعين مليئة بالحدّر، وكأنها ترى في هذا الزواج شيئًا لا تطمئن له. ومع كل لحظة كانت تمر، كان توترها يزداد بدل أن يهدأ، حتى تحوّل العرس بالنسبة لها إلى مساحة صراع داخلي، لا إلى مناسبة فرح.

في لحظة من لحظات الحفل، خرجت زهراء عن صمتها، وبدأت كلماتها تتسرب كالسكاكين بين الحديث، اعتراضات واضحة، ورفض لا يُخفى، حتى وصل الأمر إلى خصام مباشر مع العريس، كأن المكان كله أصبح على حافة

انفجار. حاول البعض تهدئة الموقف، لكن شخصية زهراء كانت أقوى من أن تُهدأ بسهولة، فقد كانت ترى أن هذا الزواج ليس كما يجب أن يكون.

مصطفى كان يراقب بصمت ثقيل، يحاول أن يحمي توازن البيت من الانهيار، لكن ما كان يحدث أمامه كان أكبر من مجرد خلاف عابر. مولودة بدورها كانت واقفة بعين قلقة، تشعر أن جميلة تمضي نحو مصير لا أحد يملك القدرة على تغييره.

ورغم كل شيء، تم الزواج.

في نهاية الحفل، وقفت جميلة وأعلنت بهدوء أنها ستقضي شهر العسل في مدينة إفران، كأنها تحاول أن تبقى شيئاً من البساطة في قرارها، أو ربما تطمئن من حولها أن كل شيء تحت السيطرة.

لكن الحقيقة كانت مختلفة تمامًا.

بعد أيام مرت، لم تتجه جميلة إلى إفران، بل غادرت مع زوجها إلى إيطاليا، دون ضجيج، دون وداع طويل، وكأنها كانت تغلق باباً بهدوء لا يلتفت للخلف.

وبعد فترة قصيرة، انقطع كل شيء.

رقمها تغير، أخبارها اختفت، لا رسائل، لا اتصال، ولا أي علامة تدل على مكانها. حتى عائلة الزوج كانت غامضة، لا تعطي إجابات واضحة، فقط تكرار لجملة واحدة: إنها في

إيطاليا، وكأن هذه العبارة وحدها كافية لإغلاق كل الأسئلة.

لكن زهراء لم تستطع أن تغلق الأسئلة داخلها.

هل ابنتها بخير أم حدث لها شيء؟

هل ما زالت حية أم أن العالم أخفاها عنها؟

لماذا هذا الصمت الكامل وكأن جميلة لم تكن موجودة أصلاً؟

هذا الغياب لم يترك فراغاً عادياً، بل فتح باب قلق عميق داخل زهراء، قلق تحوّل مع الوقت إلى قسوة أكبر. لم تعد كما كانت، بل أصبحت أكثر حدة، أكثر توترًا، كأن غياب جميلة سحب منها جزءًا لا يمكن تعويضه، حتى لو لم تعترف بذلك.

في البيت، تغيّر الجو مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يكن هناك صراخ لحظة فقط، بل صمت ثقيل ممتد، أسئلة بلا أجوبة، وامرأة لا تعرف إن كانت ابنتها بعيدة تعيش حياتها، أم أنها ضائعة في مكان لا يُعرف.

ومع مرور الأيام، لم يعد غياب جميلة مجرد حدث عائلي، بل أصبح جرحًا مفتوحًا داخل زهراء، يزيد لها قسوة بدل أن يهدئها، ويحوّل كل ما حولها إلى مساحة قلق دائم لا نهاية له.

وهكذا بدأت حكاية أخرى داخل الحكاية، حكاية لا صوت فيها لجميلة، بل فقط صدى غيابها الذي لا يُفسّر.

لم تتوقف قسوة زهراء عن الظهور، لكنها لم تعد قسوة فقط، بل امتزجت بشيء آخر أكثر تناقضًا، حزن لا يعترف به أحد وصمت مليء بالقلق. في النهار كانت صارمة كما عهدتها الجميع، حادة في الكلام، سريعة الغضب، وكأنها تحاول أن تبقى كل شيء تحت السيطرة كي لا ينهار ما تبقى من البيت.

لكن في الصباح، كان وجه آخر لها يظهر دون إرادة.

على مائدة الفطور، كانت تجلس بصمت طويل، ثم فجأة تبدأ في الحديث عن جميلة وكأنها ما زالت حاضرة. تحكي قصصًا صغيرة من طفولتها، مواقف قديمة، لحظات كانت فيها تضحك أو تعترض أو تتذمر. كانت تتكلم وكأن جميلة ستدخل في أي لحظة وتكمل الجملة أو ترد عليها.

ثم فجأة، كان اسم جميلة يخرج من فمها دون وعي.

أحيانًا تنادي حفيدتها باسم جميلة، وكأن الذاكرة تخلط بين الحاضر والغائب. وأحيانًا أخرى تنادي وسام بنفس الاسم، ثم تصمت لحظة طويلة، كأنها تستيقظ من خطأ مؤلم لا تستطيع تفسيره.

في تلك اللحظات، لم تكن زهراء قاسية، بل امرأة فقدت توازنها بين الواقع والحنين.

وفي البيت، بقيت غرفة جميلة كما هي، لم تتغير ولم تلمس. ملابسه معلقة في مكانها، أحذيتها مرتبة، صورها على الجدران وكأنها خرجت فقط لوقت قصير وستعود. لم يُسمح لأحد بالدخول، وكان الغرفة أصبحت زمنًا مجمدًا داخل البيت، لا يُمس ولا يُفسر.

لكن زهراء كانت تدخلها وحدها.

كانت تغلق الباب خلفها بصمت، ثم تنهار هناك بعيدًا عن أعين الجميع. بكاء طويل، خافت في بدايته، ثم يتحول إلى صوت مكبوت يقهر القلب، صوت امرأة لا تجد من تشتكي له ولا من يجيبها.

كانت تقف أمام صور جميلة، تلمسها أحيانًا وكأنها تتأكد أنها كانت موجودة فعلاً، ثم تجلس على حافة السرير وتبكي بصوت خالٍ من القوة، بكاء لا يشبه الغضب بل يشبه الانكسار الكامل.

كان غياب جميلة ابتلاءً ثقیلاً، ليس لأنها فقط غابت، بل لأنها غابت دون جواب، دون وداع، دون يقين. لا أحد يعرف إن كانت بخير أم لا، لا أحد يملك خبراً، وكأن العالم أغلق باباً وبقي الجميع في الخارج ينتظرون شيئاً لا يأتي.

بحثت عنها بكل الطرق.

لم يقتصر الغياب على جميلة وحدها، بل اختفى زوجها معها أيضاً. حتى عائلته لم تعد تعرف عنهما شيئاً، فقط

أنهم استقروا في إيطاليا. كانوا ينتظرون اتصالاً أو رسالة تطمئنهم، لكن شهوًراً مرت دون خبر، وكأن الاثنين اختارا الرحيل إلى مكان لا تصل إليه الأسئلة ولا الذكريات.

وما خفي كان أعظم.

ومع كل هذا، كانت زهراء تعود في الخارج إلى قسوتها، كأنها ترتدي قناعاً يحميها من الانهيار، لكنها في الداخل كانت تنكسر كل يوم بشكل أعمق، بصمت لا يراه أحد، وبألم لا ينتهي عند حدود الغياب.

مرّت أيام طويلة، ثم شهوًراً أثقل من أن تُعد، وها هو يوم عيد ميلاد جميلة يعود كجرح لا يندمل. في ذلك الصباح، لم يكن في البيت شيء يشبه الحياة العادية، كأن الزمن نفسه توقف عند اسمها ولم يتقدم بعده.

زهراء قامت بما لم يتوقعه أحد، اشترت حلوى، وشموعاً، وزيّنت الصالة بالبالونات. لكن كل تفصيلة كانت تحمل شيئاً غريباً، فرحاً لا يكتمل، واحتفالاً يشبه الوداع أكثر مما يشبه العيد.

اجتمعت مولودة وبناتها ومصطفى ووسام في الصالة، لكن الصمت كان أثقل من الزينة، والهواء مليئاً بشيء لا يُقال. لم يكن عيد ميلاد، بل لحظة واقفة بين الحياة والذاكرة، كأن الجميع جاء ليحتفل بشخص غائب أكثر من أن يحتفل بيومه.

زهراء كانت تجلس هناك ودموعها تسيل بهدوء، لا بكاء
صاخب ولا صراخ، فقط دموع تمشي على وجه امرأة
أنهكها الغياب. مصطفى كان صامتًا، عيناه تلمعان بدموع
لم يتركها تسقط كاملة، كأنها عالقة بين القلب والعين.

اقتربت زهراء من الطاولة، ونظرت إلى الشموع الطويلة
وقالت بصوت مكسور لكنه ثابت:

- لا أحد يطفى هذه الشمعة.

اتركوها تذوب وتنطفئ وحدها.

لم يعترض أحد، لأن في صوتها كان شيئًا أكبر من القرار،
كان استسلامًا للحظة لا يمكن السيطرة عليها.

في تلك اللحظة، اقتربت الطفلة الصغيرة، ابنة مولودة،
إيمان، ذات الخمس سنوات. وقفت أمام الشمعة بعفوية
بريئة وقالت بصوت صغير:

- أنا سأطفئها.

نظر الجميع إليها بصمت، فابتسمت ببراءة وأضافت:

- أبي مصطفى يقول لي إن شعري أسود طويل، وعيني
كبيرتان مثل جميلة.

دعوني أطفى الشمعة.

في تلك اللحظة، تجمد المكان. مصطفى ومولودة وزهراء نظروا إليها كأن الزمن انكسر فجأة. الاسم لم يكن مجرد تشابه، بل كان صدى لشيء لا يغادر البيت.

زهراء ابتسمت فجأة، ابتسامة قصيرة مرتبكة بين الألم والدهشة، ثم قالت:

- دقيقة، سأرجع.

دخلت إلى غرفة جميلة بصمت، وعادت تحمل فستاناً صغيراً من طفولتها، فستاناً بقي شاهداً على زمن لم يعد موجوداً. اقتربت من إيمان وألبستها الفستان بيدين ترتجفان، كأنها تعيد الزمن بطريقة لا يفهمها أحد.

وقفت الطفلة أمام الشمعة، ونفختها بهدوء بريء.

انطفأت الشمعة.

وفي تلك اللحظة، انهار مصطفى. لم يبكِ بصمت هذه المرة، بل بكى كطفل، كأن كل السنوات التي صبر فيها انكسرت دفعة واحدة. بكاء لا يشبه الرجال ولا الصبر، بل يشبه فقداً أكبر من القدرة على الاحتمال.

أما زهراء، فجلست مكانها، تنظر إلى الفراغ الذي تركته الشمعة، وكأنها أدركت أن هذا العيد لم يكن احتفالاً، بل لحظة وداع لا تعلن عن نفسها بصوت، بل تعيش في القلوب فقط.

وانتهت الحفلة... لكن لم ينته شيء في داخلهم.

بعد غياب جميلة، لم يعد الخوف يسكن البيت من جهة واحدة فقط. صار يتمدد في الزوايا، يدخل مع الصباح، ويبقى مع الليل. وكل يوم كانت مولودة تشعر أن شيئاً جديداً يتكوّن بصمت، شيئاً قد لا يراه غيرها.

كان خوفها هذه المرة على إيمان.

إيمان كانت طفلة صغيرة، خفيفة الروح، تركض بين الغرف بضحكة لا تعرف ثقل الحياة. لكن مولودة بدأت تلاحظ أن زهراء تعلقت بها بطريقة غريبة، تقترب منها كثيراً، تناديها باستمرار، تراقب حركاتها، تحدد لها ما تلبس، كيف تجلس، متى تنام، ومع من تلعب.

وفي أكثر من مرة، كانت زهراء تناديها باسم جميلة.

تقول من آخر الممر:

- جميلة، تعالي هنا.

ثم تتوقف لحظة حين تنتبه، وتنظر إلى الطفلة مرتبكة، قبل أن تصيح الاسم ببرود مصطنع:

- إيمان... أقصد إيمان.

لكن مولودة كانت ترى ما وراء الخطأ.

لم يكن الأمر نسيانًا عابرًا، بل فراغًا يحاول أن يلبس وجهًا جديدًا. كانت زهراء تبحث عن جميلة في ملامح الطفلة، في شعرها، في عينيها، في خطواتها الصغيرة، وكأنها تريد أن تسترجع الغائبة من جسد بريء لا ذنب له.

في إحدى المرات، دخلت مولودة الغرفة فوجدت زهراء تمشط شعر إيمان بقوة، وتقول لها:

- ارفعي رأسك يا جميلة... هكذا كنت دائمًا عنيدة.

تجمدت مولودة في مكانها.

الطفلة نظرت بخوف صغير لا تفهمه، بينما زهراء أكملت وكأنها لا ترى ما تقول.

شعرت مولودة أن الزمن يعيد نفسه أمامها، وأن غياب جميلة لم ينته، بل عاد ليبحث عن مكان آخر يعيش فيه.

في تلك الليلة، جلست قرب سرير إيمان وهي نائمة. كانت تتأمل وجهها البريء وتفكر أن الأطفال لا يحتاجون فقط إلى الطعام والدفع، بل يحتاجون أن يُروا كما هم، لا كما يريد الآخرون.

وكان أكثر ما يؤلمها أن تسمع اسم جميلة يخرج كل مرة من فم زهراء، لا كنداء، بل كجرح لم يتوقف عن النزف.

مرّت الشهور ثقيلة على البيت، حتى صار الانتظار جزءًا من الهواء الذي يتنفسه الجميع. كان اسم جميلة لا

يغيب، وإن غاب صوته. يمر في الصباح مع الفطور، وفي
المساء مع الصمت، وفي عيني زهراء كلما سرحت بعيداً.

الرسالة

ثم جاء اليوم الذي بدا كأنه رحمة متأخرة.

وصلت رسالة من إيطاليا.

حين رأت زهراء الظرف بين يديها، ارتبك وجهها وتبدلت أنفاسها. لم تكن تعرف القراءة، لكنها عرفت الاسم من شكل الحروف الذي حفظته بقلبها أكثر من عيناها. أمسكت الرسالة بلهفة وخوف، ثم نادى مصطفى بصوت مرتجف.

اجتمع الجميع في الصالة، وكان الصمت يملأ المكان أكثر من أي كلام. جلس مصطفى، فتح الظرف ببطء، ونظر إلى زهراء قبل أن يبدأ القراءة. كانت عيناها معلقتين بفمه، كأن حياتها كلها ستخرج من الكلمات التي سينطقها. بدأ مصطفى يقرأ.

كانت الرسالة من جميلة.

كتبت تعتذر أولاً، تعتذر عن غيابها الطويل، وعن الصمت الذي ترك قلب أمها معلقاً بين ألف احتمال. قالت إنها لم تقصد أن تعذب أحداً، لكنها كانت ضعيفة وخائفة أكثر مما تخيل الجميع.

ثم توقف مصطفى لحظة قبل أن يكمل، كأن الكلمات التالية أثقل من أن تمر بسهولة.

قالت جميلة إنها كانت تخاف من أمها زهراء، لا من حبها، بل من شدتها، من رفضها، من الطريقة التي كانت تجعل كل شيء أمرًا لا نقاش فيه. كانت تخاف أن تعود إلى حياة لا مكان فيها لاختيارها.

وتابعت أنها لم تكن صاحبة قرار الرحيل السريع، بل زوجها هو من أصر على المغادرة إلى إيطاليا. كان غاضبًا من ليلة العرس، من المشاكل التي خلقتها زهراء أمام عائلته وأصدقائه، ومن الإهانة التي شعر بها أمام الناس. حمل حقه بصمت، وجعل الرحيل أول قرار بعد الزواج.

قالت إنها حاولت تهدئته، لكنها وجدت نفسها بين نارين: زوج يرى البعد كرامة، وأم ترى السيطرة حبًا.

وأضافت أنها بخير، وأنها لم تنسَ أحدًا، لكنها احتاجت وقتًا حتى تستعيد نفسها، وحتى تستطيع أن تكتب دون خوف.

حين انتهى مصطفى من القراءة، ساد صمت ثقيل كأن البيت نفسه توقف عن التنفس.

زهراء لم تتكلم. بقيت تحديق الفراغ، وكأن الكلمات أصابتها في مكان لم يلمسه أحد من قبل.

ثم انفجرت بالبكاء.

بكاء طويل، صادق، لا يشبه غضبها ولا صراخها القديم، بل يشبه امرأة اكتشفت متأخرة أن بعض الجراح تُصنع بأيدي من يحبون.

أما مصطفى، فطوى الرسالة ببطء، وعيناه غارقتان في حزن هادئ. ومولودة بقيت صامته، لأنها فهمت أن هذه الرسالة لم تأت فقط بأخبار جميلة، بل جاءت لتكشف حقيقة البيت كله.

مرّت السنوات كما تمر المياه فوق حجر لا يتحرك. كانت الأيام تتبدل في التقويم، لكن داخل البيت ظل كل شيء يدور في الحلقة نفسها، كأن الزمن توقف هناك ورفض أن يكمل طريقه.

نفس الصباحات الثقيلة، ونفس مائدة الفطور التي يبدأ عليها اسم جميلة قبل الخبز والشاي. كانت زهراء تبكي كل صباح تقريبًا، أحيانًا بصمت، وأحيانًا بكلمات تخرج منها كأنها تحدث ابنتها الغائبة لا من حولها. لم يغب الحزن، بل صار عادة، وصار البكاء جزءًا من روتين البيت كما لو أنه شيء طبيعي لا يسأل عنه أحد.

وبعد كل دمة، كانت تعود إلى وجهها القديم. القسوة نفسها، الأوامر نفسها، الحدة نفسها، وكأنها لا تعرف طريقًا آخر للحياة سوى أن تحكم ما بقي بعدما فقدت ما أرادت أن تملكه.

أما إيمان، فقد أصبحت أقرب الناس إلى قلب زهراء. كانت تناديه كل يوم باسم جميلة، مرة عن سهو، ومرة عن قصد لا تعترف به. تقول: تعالي يا جميلة، اجلسي هنا يا جميلة، ثم تصمت لحظة قبل أن تستدرك الاسم الحقيقي. لكن الجميع كان يعلم أن زهراء لم تكن ترى الطفلة كما هي، بل كانت ترى فيها ظل الغائبة التي لم تغادرها يومًا.

وكان هذا ما يزيد حيرة مولودة.

كانت ترى ابنتها تكبر داخل حب مشوش، حب يحمل اسمًا ليس اسمها، وحنانًا يبحث عن شخص آخر. كانت تخاف أن تتحول إيمان إلى نسخة يفرضها الحنين، لا طفلة تصنع نفسها بحرية. كانت تراقب كل شيء بصمت أم تعرف أن الخطر لا يأتي دائمًا من الكره، بل أحيانًا من الحب حين يضيع طريقه.

أما وسام، فقد كبرت هي الأخرى، وصارت مع إيمان كأنهما أختان من رحم واحد. كانتا تلعبان في ساحة البيت، تركضان بين الأشجار، تضحكان بصوت يقطع ثقل المكان للحظات قصيرة. في لعبهما، كانت الحياة تحاول أن تدخل البيت من جديد، لكن الكبار كانوا غالبًا يعيدونها إلى الخارج بأحزانهم القديمة.

إيمان ووسام كانتا تكبران معًا، تتقاسمان الألعاب والأسرار الصغيرة والبراءة التي لم تفسدها بعد مشاكل الكبار. وإذا

اختلفتا، تصالحتا سريعًا، لأن قلوب الأطفال لا تعرف حفظ الخصومات كما يفعل الكبار.

ومصطفى صار أكثر صمتًا مع السنين، يمشي في البيت كمن يحمل ذاكرة كاملة على كتفيه. أما مولودة، فكانت تتقدم في العمر وهي تحرس ابنتيها بعينيها، وتحاول أن تمنحهما توازنًا بين بيت مضطرب وقلب أم يريد النجاة لهما.

وهكذا مرّت سنون طويلة.

سنون لم يقع فيها حدث يهز الجدران، لكن ما هو أخطر من الأحداث كان يقع بصمت: الأطفال يكبرون، والوجوه تتعب، والقلوب تتآكل ببطء، والبيت يشيخ على الذكرى نفسها.

وكان البيت، بين هاتين الفتاتين، يرى صورتين مختلفتين للحياة: واحدة تركز نحو العالم، وأخرى تتأمل العالم من مكانها.

أما مصطفى، فكان يشعر أن الأيام، رغم ما أخذته منه، قد أعادت له شيئًا من الطمأنينة في هيئة طفلة اسمها إيمان.

كان اسم جميلة لا يغيب، وإن غاب صوته. يمر في الصباح مع الفطور، وفي المساء مع الصمت، وفي عيني زهراء كلما سرحت بعيدًا.

وسط البيت الذي أثقلته السنوات، كانت إيمان شيئًا مختلفًا، كأنها النسمة التي تدخل من نافذة صغيرة إلى غرفة مغلقة منذ زمن. لم تكن صاحبة ولا كثيرة الكلام، لكنها كانت تحمل قدرة نادرة على تهدئة من حولها دون أن تشعر.

صارت بالنسبة إلى زهراء مرهفًا خفيًا على قلبها المتعب. حين تجلس قربها، يلين صوت الجدة قليلًا، وتخف حدتها، وكأن الطفلة استطاعت بما فيها من صفاء أن تلمس مكانًا في زهراء لم يصل إليه أحد منذ غياب جميلة. كانت تناديهما أحيانًا باسم جميلة، ثم تعود فتبتسم لإيمان كأنها تستيقظ من حلم قصير.

أما مصطفى، فقد وجد فيها رفيقة هادئة لشيخوخته البطيئة.

كانا يخرجان كل يوم تقريبًا يتسكعان في المزرعة، يسيران بين الأشجار بخطوات متأنية، ثم يجلسان في الحديقة القديمة يشربان القهوة. هو بكوبه المعتاد، وهي بفنجان صغير تقلد به الكبار. وأحيانًا يحملان كتابًا، يقرأ مصطفى بصوت هادئ، بينما تنصت إيمان بعينين واسعتين، كأن الكلمات تنزل في قلبها لا في أذنها فقط.

شيئًا فشيئًا، بدأ الجميع يشعر أن إيمان تشبه مصطفى أكثر مما تشبه أحدًا آخر.

في هدوئها، في صبرها، في أخلاقها الرقيقة، في ميلها إلى التأمل الطويل، وفي ذلك الصمت الذي لا يأتي من خوف بل من امتلاء داخلي. كانت تجلس أحياناً وحدها تنظر إلى السماء أو إلى حركة الأشجار، وكأنها تسمع ما لا يسمعه الآخرون.

وكان حنانها يمتد حتى إلى ما لا يتكلم.

تحمل الماء للحيوانات الصغيرة، وتغضب إذا رأت أحداً يخيف قطة أو يطرد عصفوراً. تحزن على زهرة ذبلت، وتطلب من مولودة ألا تُقطع الأغصان بلا سبب. كانت تتعامل مع الأشياء كلها كما لو أن لكل شيء روحاً يجب احترامها.

حتى الجمادات كانت تنال نصيبها من لطفها. تغلق الأبواب بهدوء، تضع الأكواب في مكانها برفق، وتمشي في البيت كأنها تخشى أن توقظ تعب الجدران.

وكان مصطفى ينظر إليها طويلاً ثم يقول مبتسماً بحزن خفيف:

- يا ليت وسام رزينة مثل إيمان.

فوسام كانت على النقيض تماماً. كثيرة الحركة، طائشة، اجتماعية إلى حد القلق، تتحدث مع الغرباء بسهولة، تضحك بصوت عالٍ، وتدخل في كل مكان كأن الدنيا صديقة قديمة لها. لم تكن سيئة، لكنها كانت ناراً صغيرة

لا تعرف السكون، بينما كانت إيمان ماءً يعرف كيف يمر دون ضجيج.

وكان البيت، بين هاتين الفتاتين، يرى صورتين مختلفتين للحياة: واحدة تركض نحو العالم، وأخرى تتأمل العالم من مكانها.

أما مصطفى، فكان يشعر أن الأيام، رغم ما أخذته منه، قد أعادت له شيئًا من الطمأنينة في هيئة فتاة اسمها إيمان.

في إحدى الليالي، سألت إيمان مصطفى فجأة إن كان ما يزال يحتفظ بعنوان جميلة. نظر إليها بهدوء وأخبرها أن العنوان ما يزال موجودًا داخل الرسالة التي أرسلتها له منذ سنوات. عندها ابتسمت إيمان ابتسامة خفيفة، فقد خطرت لها فكرة أن ترسل جميلة من جديد، دون أن تدرك أن تلك الفكرة البسيطة ستفتح بابًا سيغير لاحقًا مجرى كل شيء.

كانت كلما سنحت فرصة، ترسل إلى جميلة رسائل صغيرة، أحيانًا كلمات بسيطة، وأحيانًا صورًا للمزرعة، للأشجار، للغرفة القديمة، أو لزهاء وهي تجلس قرب النافذة. كانت تفعل ذلك بعفوية، لكنها في الحقيقة كانت تحفظ ما انقطع بين قلبين.

جميلة كانت ترد أحيانًا بعد تأخر، بكلمات قليلة يختبئ خلفها تعب كبير. تشكر إيمان، تسأل عن الجميع، وتوصيها أن تعتني بجدها ومصطفى ومولودة. لكن شيئًا

في رسائلها كان يتغير مع الوقت. لم تعد الكلمات خفيفة كما كانت، بل صار الحزن يتسرب بينها دون أن تصرح به.

ثم عرفوا الحقيقة.

عرفوا أن جميلة لا تعيش حياة هادئة كما تخيلوا، وأن زوجها الذي أخذها بعيدًا صار يعنفها، يصرخ في وجهها، يهينها، ويهددها كلما حاولت الاعتراض. وكان أكثر ما يكسرها تهديده المتكرر بأن يأخذ الأولاد منها إن فكرت في الرحيل أو العودة.

حين وصلت هذه الأخبار، نزل الحزن على البيت من جديد، لكن هذه المرة بشكل مختلف. لم يعد الحزن على غياب جميلة فقط، بل على وجودها في مكان يؤلمها.

زهراء جلست طويلًا دون كلام، كأن القدر أعاد إليها ابنتها لكن على هيئة جرح جديد. كانت تضرب كفًا بكف وتردد بصوت منكسر:

- يا ليتني سكْتُ يوم العرس.

يا ليتني لم أفتح أبواب الشر بيدي.

أما إيمان، فقد استمرت في إرسال الرسائل. لم تعد ترسل فقط أخبار البيت، بل صارت ترسل لجميلة شيئًا أثمن: كلمات صغيرة تذكرها أنها ليست وحدها، وأن هناك من ينتظرها، ومن لا يزال يراها رغم المسافات.

وكانت جميلة، في الجانب الآخر من البحر، تتشبث بتلك الرسائل كما يتشبث الغريق بخشبة صغيرة.

لم يعد مصطفى هو الرجل الذي كان يومًا.

السنوات لم تمر عليه بهدوء، بل مرّت كأنها أخذت منه شيئًا في كل مرة: القوة، الخطوة الثابتة، ثم القدرة على العمل. صار جسده أبطأ، وقدماه لم تعودا تحملانه كما في السابق، وكأن الأرض التي كان يسير عليها طويلًا قررت أخيرًا أن ترد له التعب.

أصبح عاجزًا عن العمل، وعن جلب المال، وعن القيام بما اعتاده طوال عمره في المزرعة، وبين التنقل والعمل في المزارع الضخمة. وكان الصمت حوله يزداد ثقلًا، وكأن الجميع بدأ يدرك أن مرحلة جديدة تُكتب دون استئذان.

في تلك الفترة، جاءت فكرة زهراء.

كانت تقف أمام الواقع بطريقتها الحاسمة، لا تتركه ينهار دون أن تعيد تشكيله من جديد. قالت إن الحل هو بيع جزء من أرض المزرعة، قطعة كبيرة، لكنها تحمل قيمة عالية، يمكن أن تغيّر شكل الحياة كلها.

كان القرار ثقيلًا، لكن تم تنفيذه.

تم بيع جزء من الأرض بثمن كبير، رقم لم يكن يومًا جزءًا من حياة هذا البيت البسيطة. لأول مرة، دخل المال بهذا

الشكل إلى أيديهم، لا على شكل تعب يومي، بل على شكل صفقة واحدة غيّرت ميزان كل شيء.

جلست زهراء تفكر في المستقبل بطريقتها الخاصة، ليست كحلم، بل كخطة.

قالت لمصطفى بهدوء حاسم:

- سنشتري منزلًا في وسط المدينة... من طبقتين.

سكتت لحظة، ثم تابعت وكأنها ترتب حياة كاملة بكلمات قليلة:

- ستأخذ أنت طبقة باسمك، وسيارة جديدة أيضًا باسمك، وما تبقى من المال سنعيش به.

نظرت إليه مباشرة:

- والبيت الآخر سنؤجّره، سيكون مصدر دخل لنا.

كان كلامها واضحًا، منظمًا، كأنه لا يحتمل الاعتراض.

وفي الأيام التي تلت، بدأ كل شيء يتحرك بسرعة: البيع، الأوراق. كأن الحياة نفسها لم تعد تنتظر أحدًا.

اشتريت زهراء المنزل في وسط المدينة كما خططت.

بيت من طبقتين، واسع، جديد، يطل على حياة مختلفة تمامًا عن المزرعة القديمة. بدا وكأنه بداية صفحة نظيفة، أو هكذا ظنّ الجميع.

مرت أيام قليلة، ثم جاء اليوم الذي خرجوا فيه جميعًا معًا: مولودة، إيمان، وسام، مصطفى، وزهراء.

كان في الوجوه شيء من الأمل، شيء من التصديق أن الحياة يمكن أن تبدأ من جديد بدون ألم.

دخلوا مكتب النوتيل، ذلك المكان الهادئ الذي تتحول فيه الوعود إلى أوراق رسمية وأسماء موقعة.

كان الهدف واضحًا: أن تكتب زهراء طبقة من المنزل باسم مصطفى، وأن يُحوّل ما تبقى من المال إلى حسابه ليعيش منه وينفق على البيت.

جلس مصطفى بهدوء، يراقب الأوراق، ينتظر لحظة التثبيت، لحظة أن يُكتب اسمه أخيرًا في هذا الاستقرار الجديد.

مولودة كانت تراقب بصمت، وإيمان تجلس بجانبها بهدوء، لا تفهم ثقل ما يحدث، ووسام تنظر حولها بقلق خفيف لا تعرف مصدره.

كل شيء كان يسير بشكل طبيعي...

حتى لحظة واحدة.

رفع الموظف رأسه، وطلب الإجراء الأخير.

تقدمت زهراء خطوة، ثم توقفت.

ساد صمت مفاجئ، صمت لم يكن موجودًا قبل ثوانٍ.

ثم قالت زهراء بصوت قاسٍ، بارد، لا يحمل ترددًا:

- اجمع بطاقة هويتك... لن أكتب لك شيئًا.

كأن الجملة سقطت فوق المكان كله دفعة واحدة.

تجمد الهواء.

نظر مصطفى إليها أولًا كأنه لم يسمع جيدًا.

ثم عاد النظر، هذه المرة ببطء، كأن المعنى بدأ يدخل إليه متأخرًا.

كانت عيناه زرقاوين، لكنهما فقدتا بريقهما للحظة، كأن ضوءًا داخلهما انطفأ فجأة.

لم يقل شيئًا.

لكن وجهه تغير.

تلك النظرة لم تكن غضبًا فقط، بل خيبة كاملة، خيبة رجل أدرك في لحظة أن ما ظنه استقرارًا كان هشًا أكثر مما تخيل.

وببطء شديد، سقطت دموعتان من عينيه.

لم يمسحهما.

لم يتحرك كثيرًا.

فقط أخذ هويته، بيد صامته، وكأنها لم تعد جزءًا من شيء.

أما مولودة، فقد شعرت أن شيئًا داخلها انكسر دون صوت.

إيمان بقيت تنظر في صمت لا تفهمه، ووسام تحركت خطوة إلى الخلف وكأنها تخشى أن تلمس هذا الانهيار.

وفي المقابل، بقيت زهراء واقفة بثبات قاسٍ، لا يظهر عليها شيء...

خرج مصطفى من مكتب النوتيل بخطوات بطيئة، كأن الأرض لم تعد تثق بقدميه.

لم يلتفت في البداية، لكن الجميع تبعه دون أن يتكلم أحد.

مولودة كانت أول من اقترب منه، تمشي بجانبه بصمت ثقيل، ثم وضعت يدها على ذراعه محاولة أن تثبته في اللحظة، لا في الأرض.

لكن مصطفى كان من الداخل بعيدًا، أبعد من أن يصل إليه أي ثبات.

إيمان كانت تبكي بصوت خافت، دموعها تنزل دون توقف، لا تفهم كل شيء، لكنها تفهم بما يكفي لتشعر أن شيئًا كبيرًا انكسر.

أما وسام، فكانت تسير خلفهم بصمت مرتبك، وجهها
مشدود بين الذهول والخوف، كأنها ترى شيئاً أكبر من
عمرها.

في لحظة، توقف مصطفى.

رفع رأسه قليلاً، ثم قال بصوت مكسور، لكنه واضح، كأنه
يخرج من عمق سنوات طويلة من الصبر:

- آه يا مولودة... لقد بعثُ ميراثي من أجلها.

تركتُ أخواتي غاضبات مني...

حققتُ لها ما كانت تحلم به... مزرعة، وخدم، وكل شيء.

سكت لحظة، كأن الكلمات تخنقه، ثم أكمل ببطء أشد:

- كل شيء كتبته باسمها...

كل تضحياتي كانت لها... لها وحدها.

لم يعد صوته يحتمل المزيد، فانكسر في آخر الجملة.

مولودة لم تستطع الرد.

كانت تبكي بصمت، دموعها تسقط وهي تنظر إلى والدها،
وكأنها ترى رجلاً عاش عمره يعطي، ثم اكتشف متأخراً أن
العتاء وحده لا يكفي حين يكون في غير موضعه.

قالت بصوت مرتجف وهي تحاول أن تجمع كلماتها:

- لقد كنت شاهدة على كل شيء...

كنت أرى وأصمت... والآن... أخجل أني ابنتها.

ثم سقط صوتها أكثر:

- كم صعب أن يأتي الغدر على هيئة زوجة...

ساد صمت ثقيل بعد الجملة، صمت لا يشبه الفراغ، بل يشبه الحقيقة حين تُقال أخيرًا دون تجميل.

إيمان بكت أكثر، ووسام اقتربت خطوة وكأنها تريد أن تفهم لكنها لا تجد طريقة.

ومصطفى بقي واقفًا، ينظر إلى الأمام دون أن يرى شيئًا، كأن كل ما بناه في حياته مرَّ أمامه في لحظة واحدة ثم اختفى.

جلس مصطفى وحيدًا تلك الليلة، يحدّق في الصمت الطويل أمامه كأن عمره كله يمرّ أمام عينيه دفعة واحدة. تنهد بحسرة وهو يستعيد سنواته مع زهراء، وكل ما تحمله وضحيّ به من أجلها، وكل ما خسره وهو يحاول أن يُبقي البيت قائمًا رغم تعبهِ وانكساره الداخلي. ثم همس لنفسه بصوت متعَب:

"لو كنت أعلم أن النهاية ستكون هكذا... لما ضحيت بكل هذا العمر".

ساد الصمت للحظات، قبل أن يضيف بألم أكبر:

"لولا البنات... وخصوصًا وسام... لكنت رحلت إلى فرنسا منذ سنوات، وتركت كل شيء خلفي".

مرت الأيام بعد تلك الصدمة وكأنها لا تمشي على أرض، بل على شيء هشّ جدًّا، قابل للكسر في أي لحظة.

كان البيت قد تغيّر، لكن ما داخله ظلّ على حاله، كأن الزمن لم يجرؤ أن يلمسه بالكامل.

زهراء اشترت سيارة جديدة.

لم يكن ذلك مجرد تغيير، بل إعلان صامت عن مرحلة مختلفة. ثم جاء السائق الخاص، رجل يرافقها في كل تنقلاتها، وكأن حياتها بدأت تأخذ شكلًا آخر أكثر استقلالًا، وأكثر صرامة في الوقت نفسه.

أما مصطفى، فقد صار أكثر هدوءًا من قبل، هدوءًا لا يشبه السلام، بل يشبه الانطفاء.

يمشي في البيت بلا كثير كلام، ينظر إلى الأشياء دون أن يعلق عليها، وكأنه يعيش فقط لأن هناك ما يمنعه من التوقف الكامل.

كان يعيش من أجل البنات فقط، كأنهن الحبل الأخير الذي يربطه بالحياة.

إيمان بقيت على عاداتها الصغيرة.

ترسل إلى جميلة رسائل متكررة، صورًا، كلمات، تفاصيل يومية، وتحاول أن تقنعها أن تأتي، أن تزورهم ولو مرة واحدة، أن ترى البيت، أن ترى العائلة، أن تعود ولو لوقت قصير.

لكن الردود كانت قليلة، متقطعة، تحمل دائمًا نفس البعد ونفس الحذر.

ببطء شديد، كأنها تمشي على بيض، كل خطوة فيها تحتاج حذرًا، وكل كلمة يمكن أن تفتح جرحًا قديمًا من جديد.

لا شيء كان ينكسر بصوت، لكن كل شيء كان يتغير من الداخل... بهدوء مخيف، لا يلاحظه إلا من يعيش داخل هذا البيت يومًا بعد يوم.

وسام كبرت، ومعها كبر شيء آخر داخلها لا يشبه الطفولة القديمة.

لم تعد تكتفي بالصمت، ولا تقبل الأوامر كما كانت.

كانت تخرج أكثر، تجادل أكثر، وتردّ بطريقة تجعل زهراء تفقد أعصابها بسرعة.

زهراء كانت ترى في ذلك خطرًا جديدًا، ليس على النظام فقط، بل على الصورة التي تحاول أن تحافظ عليها للعائلة.

أما مصطفى، فكان يراقب بصمت، لا يتدخل كثيرًا، كأن
التعب في داخله لم يعد يسمح له بالدخول في صراعات
جديدة.

مولودة كانت بين الطرفين، تحاول أن تهدئ، لكنها كانت
تشعر أن شيئًا ما يتفلت من يد الجميع.

حين عاد الغائب إلى عينيه

مرت سنون، وإيمان لا تملّ من التواصل مع جميلة.
رسائل متتابعة، كلمات دافئة، صور للمزرعة، أخبار
مصطفى، وأحاديث صغيرة كانت تخفي وراءها رجاءً
واحدًا: عودي.

كانت تقنعها مرة بالحزن، ومرة بالحنين، ومرة باسم
مصطفى الذي ينتظر دون أن يقول إنه ينتظر.
كانت تكتب لها:

تعالى ولو زيارة...

تعالى من أجل أبى مصطفى...

اثنا عشر عامًا كثيرة يا جميلة... كثيرة جدًا.

نعم، اثنا عشر عامًا كاملة مرّت على الغياب.

اثنا عشر عامًا تغيّرت فيها الوجوه، شاخت الأجساد،
وكبرت الطفلات، لكن بعض الجروح بقيت كما هي.

أما زهراء، فقد بدأ الزمن يردّ لها ما كانت تؤجله.

السنّ أثقل خطواتها، ومرض السكري صار ينهش قوتها
ببطء، وأعصابها المتوترة أكلت ما تبقى من صبرها.

وأحيانًا كانت ذاكرتها تغيب، فتنسى أسماء قريبة وتتذكر أسماء بعيدة، كأن العقل حين يتعب يعود إلى الماضي أكثر من الحاضر.

إيمان كانت تلاحظ ذلك كله، ولهذا بدأت تتحدث مع جدتها كثيرًا عن الماضي، كأنها تنبش الأرض القديمة بحثًا عن جذور ما حدث. تسألها عن جميلة، عن طفولتها، عن يوم رحيلها، عن الأشياء التي لم تُقل.

لكن داخل قلب إيمان كان خوف خفي.

كانت تريد جمع العائلة، لكنها تعرف أن بعض الأبواب إذا فُتحت، قد يخرج منها الوجع أولًا.

ثم جاء اليوم.

دخلت جميلة المغرب.

لم يكن الخبر عاديًا.

كان كعودة شخص من الأسطورة، شخص ظل حيًا في الحكايات أكثر من الواقع.

ركبت الطريق نحو بلدة سبع عيون، ومعها زوجها وأطفالها. السيارة تشق المسافة، بينما قلبها يسبقها بالخوف.

وجه جميلة لم يعد وجه الفتاة التي غادرت قديمًا.

كان فيه جفاف واضح، تعب صامت، ونظرة امرأة عاشت مع رجل قاحل المشاعر، رجل لا يترك كدمات دائمة في الجسد... بل يتركها في الروح.

قبل أن تصل إلى البيت، خرجت إيمان للقائها.

ركضت نحوها، ثم توقفت لحظة، كأنها تريد أن تحفظ ملامحها جيدًا بعد كل هذه السنين. ثم عانقتها بقوة.

كانت جميلة ترتجف.

خوفها من أمها لم يكن خوفًا عاديًا، بل خوفًا هستيريًا قديمًا، عاد دفعة واحدة. خوف الابنة التي هربت ولم تُشف من سبب الهرب.

أمسكت إيمان بيديها وقالت لها بسرعة، كأنها تريد أن تغلق باب الرعب قبل أن يُفتح:

- لا تخافي...

لا تخافي...

ثم اقتربت أكثر وهمست:

- زهراء أصبحت مسنة...

أحيانًا تغيب ذاكرتها...

والسكري أضعفها...

والأعصاب أكلت ما تبقى من قلبها...

نظرت في عينيها وقالت مرة ثالثة:

- لا تخافي.

وقفت جميلة صامته.

كانت تسمع الكلمات، لكن الماضي في داخلها كان أعلى
من كل طمأننة.

أما البيت، فكان ينتظر على بعد خطوات...

ينتظر عودة لم يتخيل أحد أنها ستأتي بعد اثني عشر عامًا،
ومعها كل ما لم يُحل منذ الرحيل الأول.

كان العصر يميل ببطء نحو هدوئه الأخير، والمزرعة
ساكنة إلا من صوت ريح خفيفة تمر بين الأشجار، كأنها
تهمس بشيء لا يريد أحد تصديقه.

جلس مصطفى في الحديقة المعتادة، على الكرسي
الخشبي الذي صار يعرف ثقل جسده وتعبه.

عصاه بجانبه، وفنجان قهوته أمامه، وعيناه شاردتان في
البعيد كما لو أنه يبحث عن شيء ضاع منذ زمن ولم يعد
يملك قوة البحث عنه.

كان قد شاخ كثيرًا.

تجاعيد وجهه لم تكن من العمر فقط، بل من الانتظار
أيضًا.

ورجله التي تعرج صارت تجبره على الجلوس أكثر مما
يريد.

في تلك اللحظة، دخلت إيمان من باب المزرعة بخطوات
متردة، وعلى وجهها اضطراب لم يعرفه منها من قبل.

كانت تسير بسرعة ثم تبطئ، كأن قلبها يركض وجسدها
يخاف.

توقفت أمامه وقالت بصوت حاولت أن تجعله عاديًا فلم
تستطع:

- أبي مصطفى... هناك من يريد أن يراك.

رفع رأسه ببطء.

نظر إليها طويلًا، ثم إلى الباب البعيد.

ومن خلفها... ظهرت جميلة.

في البداية، لم يفهم ما رآه.

ظنها خدعة من الذاكرة، أو صورة قديمة خرجت من
رأسه لتقف أمامه.

ظل ساكنًا، يحدق فيها كأن الزمن تجمد فجأة.

كانت امرأة الآن، لا تلك الفتاة التي غادرت يومًا.
وجهها يحمل تعب السنين، وعيناها تحملان خوفًا قديمًا،
لكن ملامحها... ملامحها كانت كما عرفها قلبه دائمًا.
وقف مصطفى محاولاً النهوض بسرعة، فخافته رجله.
ارتبك الكرسي، وسقط الفنجان على الأرض.
أسرعت إيمان إليه، لكنه أشار بيده أن اتركه.
نهض بصعوبة، ثم وقف مواجهًا الحياة التي عادت
متأخرة.
جميلة لم تستطع الاقتراب فورًا.
كانت ترتجف كطفلة أخطأت وعادت بعد طول غياب.
ثم قالت بصوت مكسور:
- أبي...

هذه الكلمة وحدها هدمت ما بقي من صبره.
ارتجفت شفتاه، وامتلأت عيناه بدموع ثقيلة.
مد يده نحوها، ولم يعرف هل يلمسها ليتأكد أنها
حقيقية، أم يعانقها قبل أن تضيع ثانية.
اقتربت جميلة أخيرًا، وارتمت في صدره.

بكي مصطفى.

بكي كما يبكي الرجال الذين صبروا أكثر مما يجب.

بكاء لا صوت فيه أول الأمر، ثم خرج منه نحيب مكتوم يشبه أنين السنوات.

كان يضمها بكل ما بقي فيه من قوة، كأنه يعانق الاثني عشر عامًا الضائعة، ويستردها دفعة واحدة.

إيمان وقفت قريبًا، ودموعها تنزل في صمت.

كانت تشاهد معجزة صغيرة صنعتها الرسائل والصبر.

قال مصطفى بين شهقات متقطعة:

- رجعت...

رجعت يا بنتي...

رفعت جميلة وجهها نحوه، وقالت وهي تبكي:

- سامحني...

هز رأسه سريعًا، كأن هذا الطلب ظلم جديد له.

وقال بصوت متعب:

- أنا الذي أطلب السماح... لأنني لم أحملك.

ساد صمت كبير.

حتى الأشجار بدت واقفة بخشوع، وكأن المزرعة نفسها تعرف أن شيئًا ثمينًا عاد إلى مكانه، ولو متأخرًا.

أما إيمان، فنظرت إليهما وشعرت لأول مرة أن بعض الجراح لا تُشفى بالكلام... بل بالعودة فقط.

في داخل البيت، كانت زهراء جالسة قرب النافذة، تراقب. لم تعد تجلس كما كانت قديمًا، منتصبه كمن يملك العالم، بل صارت تنحني قليلًا، كأن السنين وضعت يدها الثقيلة على كتفها.

أمامها كأس ماء لم تشربه، وعلبة دواء مفتوحة، ونظرة تائهة بين الحاضر وأشياء لا يراها سواها.

كانت تسمع أصواتًا متقطعة من الخارج، حركة غير معتادة، همسات، خطوات متسارعة.

لكنها لم تهتم في البداية.

ثم سمعت صوت بكاء.

تجمدت.

كانت تعرف هذا الصوت جيدًا.

صوت مصطفى حين ينكسر.

رفعت رأسها ببطء، ونهضت متكئة على طرف الطاولة.

خطواتها لم تعد حادة كما كانت، بل متعبة، مترددة، كأن
الأرض نفسها لم تعد تطيعها.
خرجت نحو باب الصلاة.
ورأتهم.

مصطفى واقف، يحتضن امرأة تبكي في صدره.
إيمان إلى جوارهما، دامعة العينين.
وفي اللحظة التالية... عرفت.
جميلة.

توقفت زهراء كما تتوقف ساعة قديمة حين ينقطع عنها
النبض.

ظلت تحديق فيها طويلاً، بلا حركة، بلا رمش تقريباً.
لم تكن ترى امرأة فقط.

كانت ترى الطفلة التي مشطت شعرها صباحات كثيرة.
المراهقة التي خاصمتها.

الابنة التي هربت.

الفراغ الذي سكن البيت بعدها.

الاسم الذي كانت تنادي به إيمان خطأً من شدة الشوق.

كل ذلك وقف أمامها فجأة بلحم ودم.

ارتجفت يدها.

ثم سقطت عصاها من بين أصابعها على الأرض.

التفتت جميلة.

وحين التقت عيناها بعيني أمها، عاد الخوف القديم إلى وجهها، كأن اثني عشر عامًا لم تمر.

أما زهراء... فقد انكسر وجهها كله.

تحركت شفاتها بصعوبة، وخرج الاسم كأنه يخرج من بئر عميقة:

- جميلة...

خطت خطوة واحدة، ثم ثانية، ثم توقفت.

لم تعد تعرف:

هل تعانق؟

هل تصفع؟

هل تبكي؟

هل تسألها لماذا؟

هل تسأل نفسها لماذا؟

ثم غلبها القلب قبل الكبرياء.

اندفعت نحوها ببطء مرتبك، واحتضنتها فجأة.

احتضان أمّ لم تعد قوية بما يكفي لتخفي ضعفها.

بكت زهراء.

لا بكاء السيدة التي كانت تفرض الصمت على البيت، بل بكاء امرأة هزمتها الفقد ثم باغتها الرجوع.

كانت تردد بين شهقاتها:

- رجعت...

رجعت يا بنتي...

رجعت وتركت أمك تموت كل يوم...

جميلة بقيت جامدة لحظة، ثم ذابت في حضنها وبكت هي الأخرى.

أما مصطفى، فجلس على أقرب كرسي، يراقب المشهد بعينين غارقتين.

كان يعلم أن بعض المعارك لا يحسمها العقل... بل تنهار فجأة أمام حضن واحد.

إيمان مسحت دموعها بصمت.

كانت ترى أمامها شيئاً نادراً:

امرأتين أفسدهما الحب، وأصلحهما العناق ولو للحظة.
لكنها، في أعماقها، كانت تعرف أن البكاء لا يمحو
الماضي...

وأن ما عاد اليوم إلى البيت، لم يعد وحده.

عاد معه كل ما هربوا منه.

في المطبخ، كان الضوء خافتًا، كأنه يخاف أن يقتحم
اللحظة.

مولودة كانت واقفة قرب الطاولة، يداها مشغولتان بشيء
لا معنى له، لكنها في الحقيقة كانت تحاول أن تُخفي
ارتباك قلبها.

ثم دخلت جميلة.

لم تقل شيئًا في البداية.

توقفت عند الباب فقط، وكأنها تخشى أن تتحرك فتفسد
الحقيقة التي تراها أمامها.

مولودة...

هي هنا فعلاً.

تقدمت خطوة.

ثم خطوة أخرى.

وفي لحظة واحدة، انهار كل ما كان بينهما من سنوات.

قالت جميلة بصوت مكسور:

- مولودة...

لم تنتظر مولودة أكثر.

التفتت إليها فجأة، وكأن الاسم وحده أعادها إلى زمن آخر.

ولم تستطع المقاومة.

ركضت نحوها.

احتضنتها بقوة، احتضانًا طويلًا، كأنها تريد أن تتأكد أنها ليست حلمًا.

جميلة لم تتمالك نفسها، وبكت بين ذراعيها.

بكاء متأخر، ثقيل، يشبه الاعتذار الذي لم يُقل في وقته.

مولودة لم تتكلم أولًا. فقط كانت تضمها، وكتفها يرتجف بصمت.

ثم همست بصوت خافت:

- رجعت...

رجعت أخيرًا...

رفعت جميلة رأسها قليلاً، ودموعها لا تتوقف:
- أنا آسفة... لم أكن أقصد أن أغيب كل هذا الوقت...
شدّت مولودة على ذراعيها أكثر، وقالت بسرعة، وكأنها
تخاف أن تنكسر اللحظة:
- لا تقولي آسفة الآن...
الآن فقط... لا نريد كلمات كثيرة.
صمت قصير.
ثم ابتعدت قليلاً لتنظر إليها.
تأملت وجهها طويلاً، كأنها تحفظه من جديد.
وقالت بابتسامة مكسورة:
- كبرت...
لكن عينيك ما زالتا نفسيهما.
ضحكت جميلة وسط دموعها:
- وأنت... بقيت هنا كما أنتِ دائماً.
هزّت مولودة رأسها ببطء:
- لست كما كنت...

لكنني بقيت.

ثم ساد صمت دافئ، ليس صمت الغضب، بل صمت اللقاء الذي لا يعرف كيف يصف نفسه.

جلستا معًا قرب الطاولة.

لم يكن هناك لوم، ولا حسابات، فقط حضوران يتأملان ما تبقى من العمر بينهما.

قالت مولودة أخيرًا بصوت أهدأ:

- كنت أشتاق إليك في الأيام التي كنت أغضب فيها منك.

نظرت جميلة إليها، ودموعها تهبط بهدوء:

- وأنا... كنت أخاف أن أعود فلا أجد مكانًا لي هنا.

مدّت مولودة يدها وأمسكت يدها فورًا:

- مكانك لم يذهب... فقط تأخر عليك.

وفي الخارج، كان البيت كله ما زال مضطربًا، مليئًا بالأصوات والذكريات.

الغرفة التي لم تمت

كانت زهراء تمشي في الممر بخطوات بطيئة، كأن البيت نفسه صار أثقل من جسدها.

خلفها، كانت جميلة تتردد.

كل خطوة نحو الأعلى كانت تعني خطوة نحو شيء كانت تهرب منه اثني عشر عامًا.

إيمان توقفت عند أسفل الدرج، وكأنها تفهم أن بعض اللحظات لا تُرافق.

قالت بهدوء:

- سأنتظركم هنا...

وصعدت زهراء أولاً.

دفعت الباب الخشبي القديم.

فانفتح ببطء، وكأنه يرفض.

وفي اللحظة التي دخلوا فيها...

توقف الزمن.

الغرفة كانت كما هي.

نفس السرير.

نفس الستائر.

نفس الطاولة الصغيرة قرب النافذة.

حتى الهواء فيها بدا محتفظًا بشيء من الماضي.

زهراء لم تتحرك أولاً.

وقفت عند الباب، وعيناها تبحثان عن شيء لا تراه.

ثم قالت بصوت منخفض جدًا:

- لم يلمسها أحد...

لم يكن سؤالًا، بل حقيقة مؤلمة.

دخلت جميلة ببطء خلفها.

وحين رأت الغرفة... توقفت.

لم تتوقع هذا.

ظنت أن الغياب سيأكل كل شيء.

لكن الغياب، بدل أن يأكلها... حفظها.

اقتربت من السرير.

لمسته بيد مرتجفة.

ثم جلست عليه ببطء، كأنها تخاف أن تفسد صمت السنوات.

وفجأة...

انفجرت الذكريات داخلها دفعة واحدة.

ضحكتها وهي صغيرة.

صوتها وهي تنادي.

ليالي الخوف.

ليلة الرحيل.

غطّت وجهها بيديها وبكت.

بكاء ليس أمام أحد... بل أمام نفسها.

زهراء بقيت واقفة.

لم تبك فوراً.

كانت تنظر إلى كل شيء وكأنها تحاسب الغرفة بدل أن تحاسب نفسها.

ثم اقتربت.

جلست على طرف السرير بصعوبة.

مدّت يدها ولمست الغطاء.

وقالت بصوت مكسور:

- كنت أظن أنك رحلت من هنا فقط...

لكني الآن أفهم... أنك رحلت مني أنا.

رفعت جميلة رأسها بسرعة:

- لم أكن أريد أن أرحل... لكنني كنت خائفة.

ابتسمت زهراء ابتسامة حزينة جدًا:

- وأنا كنت أظن أن الخوف يُحفظ بالقوة...

ساد صمت طويل.

ثم وقفت زهراء فجأة.

اقتربت من الخزانة.

فتحتها.

كانت الملابس ما زالت هناك.

صغيرة. قديمة. كأن الزمن توقف عند لحظة واحدة.

أخذت زهراء فستانًا صغيرًا بين يديها.

تجمدت.

ثم همست:

- كنت أناديك باسمك... ثم أنادي إيمان باسمك... حتى نسيت أي صوت لك كان حقيقياً.

انفجرت جميلة بالبكاء من جديد.

وقفت واحتضنت أمها فجأة.

هذه المرة، لم تكن مواجهة.

كانت اعترافاً متأخراً جداً بأن كل واحدة فقدت الأخرى بطريقتها.

زهراء رفعت يدها وربّتت على ظهرها.

ببطء.

بضعف.

بشيء يشبه الاعتذار الذي لم يُقل منذ سنوات طويلة.

وفي الغرفة التي لم تمت...

عاد شيء صغير جداً للحياة.

ليس الفرح...

بل الحقيقة.

كانت إيمان واقفة في الحديقة، تراقب الأطفال وهم يركضون بين الأشجار، لكن داخلها لم يكن هناك أي ركض... فقط ازدحام أفكار ثقيلة لا تهدأ.

قالت في داخلها، بصوت لا يسمعه أحد:
"لم أكن أعلم... أن تلك الرسائل البسيطة الحنونة، يمكن
أن تصنع هذا الحدث".
توقفت لحظة، وعيناها تتابعان جميلة من بعيد، ثم
أضافت لنفسها:
"كنت أكتب لها لأطمئنها... لأعيدها فقط...
لكني لم أكن أعلم أنني أفتح بابًا لكل هذا الألم من
جديد".
شعرت بشيء يشبه الخوف يتسلل داخلها.
ليس خوفًا عاديًا... بل خوفًا أعمق.
"أنا كنت خائفة أكثر من جميلة...
لكني كنت أقول لها: لا تخافي".
ابتسمت ابتسامة خفيفة، لكنها لم تصل إلى قلبها.
ثم نظرت نحو زهراء.
كان في نظرة جدتها شيء جديد، شيء لا يمكن التنبؤ به.
"كنت أخاف ردة فعل زهراء أكثر من أي شيء...
وليس جميلة فقط".

ثم التفتت بعينيهما نحو زوج جميلة.

شعرت بانقباض خفيف في صدرها.

"وماذا الآن؟"

هل هذا الرجل سيعيد فتح جراح جديدة؟

هل وجوده سيقرب البيت مرة أخرى؟"

خفضت نظرها إلى يديها.

وسألت نفسها بصمت:

"هل سأتخلص من اسم جميلة؟"

سكتت لحظة.

ثم جاء صوتها الداخلي أكثر ألمًا:

"أريد أن أكون أنا... إيمان..."

لست جميلة".

ضغطت على أصابعها بقوة.

"وما ذنبي أنا؟"

لماذا دائمًا أعيش ظل اسم ليس اسمي؟"

ثم عادت بذاكرتها إلى أيام المدرسة.

"في الصفوف المدرسية... الثانوية...
كانوا ينادونني إيمان...
لكنني كنت أحتاج لحظة لأفهم أن هذا أنا".
تنفست ببطء، وكأن الذكرى ثقيلة.
ثم همست لنفسها:
"ربما أنا أشبهك يا جميلة...
في شعرك... في عينيك الكبيرتين...
لكنني لست مثلك".
رفعت رأسها نحو السماء قليلاً.
"أنا لا يمكنني أن أكون قاسية القلب...
ولا يمكنني أن أترك أي اثني عشر عامًا".
ساد داخلها صمت طويل.
ثم قالت في النهاية، كأنها تعترف لنفسها لأول مرة:
"أنا لست جميلة...
أنا فقط... التي بقيت".

ما بعد الفرح

انتهت الحفلة كما تنتهي الأشياء الجميلة دائماً... بهدوءٍ لا يشبه بدايتها.

تفرّق الجميع شيئاً فشيئاً، وبقي في المزرعة ذلك الصدى الخفيف للضحك، كأنه لا يريد أن يغادر تماماً.

لكن الهدوء هذه المرة لم يكن سلاماً... بل استراحة قصيرة قبل عودة الألم.

جلست زهراء أمام أحفادها الثلاثة تنظر إليهم بصمت طويل، كأنها تحاول أن تجد داخل وجوههم ما ضاع منها عبر السنوات. لم تكن تعرف ماذا تقول، ولا كيف تبدأ، فاكثفت بالتحديق في تفاصيلهم الصغيرة، وكأنها تعوض بذلك الصمت كل الغياب الذي مرّ.

أما إيمان، فكانت تراقبها من بعيد وتشعر أن شيئاً ما تغيّر في زهراء. لم تعد تلك المرأة التي اعتادت الانفعال والصراخ، بل بدا عليها هدوء غريب، هدوء يشبه التعب أكثر مما يشبه الراحة.

وفي الجهة المقابلة، كان زوج جميلة حاضراً بصمته الثقيل، ذلك الرجل الذي لطالما أثار داخل زهراء غضباً لا ينطفئ. لكنها هذه المرة لم تفعل شيئاً. التزمت الصمت فقط، وكانت تنظر إليه أحياناً بنظرات جامدة تحمل

حقداً قديماً وخذلاناً طويلاً، ثم تعود فتشيع بعينيها وكأنها تمنع نفسها بصعوبة من الانهيار أو الانفجار.

ولأول مرة، لم ترفع صوتها، ولم تدخل في جدال، ولم تحاول مهاجمة أحد. كانت متماسكة بصعوبة، وكأن السنوات أخيراً استنزفت منها كل رغبة في الصراخ.

كانت هذه المرة تخوض حرباً صامتة داخلها، وتحاول بكل ما بقي فيها أن تخفي انهيارها أمام الجميع.

ربما لم يكن صمت زهراء ضعفاً، بل خوفاً قديماً عاد ليقيدّها من جديد. كانت تريد أن تواجهه، أن تطرده، أن تنتقم لكل ما حملته داخلها من حقد وخذلان، لكنها خافت من تكرار الفقد نفسه. خافت أن يرحل مرة أخرى، وأن تُحرم مجدداً من أحفادها الثلاثة، لذلك ابتلعت غضبها بصمت، وتمسكت بذلك الهدوء المتعب وكأنها تحاول حماية ما تبقى لها من العائلة.

لم تكن زهراء تعلم أن بعض التصرفات الصغيرة قد تترك داخل الآخرين جروحاً لا تموت، وأن هناك قلوباً مريضة بالحق، قادرة على انتظار سنوات كاملة فقط لتنتقم بطريقتها الخاصة.

وأن ليست كل أشكال الانتقام دماءً أو صراخاً، أحياناً يكون أقسى انتقام هو أن تُحرم إنساناً ممن يحب، وأن تتركه يعيش عمره كله وهو ينظر إلى الفراغ الذي خلفه الغياب.

وهذا ما فعله زوج جميلة انتقامًا من زهراء.

مرّ شهران. كانت جميلة تتحرك داخل البيت كمن يحاول أن يحفظ اللحظة الأخيرة من الدفء قبل أن يفقدها مرة أخرى.

لكن قرارها كان قد اتُّخذ.

العودة إلى إيطاليا.

في صباح الرحيل، لم يكن المشهد صახبًا كما كان يوم الوصول.

كان أكثر صمّتًا، وأثقل.

أطفال جميلة لا يفهمون تمامًا لماذا الحقيبة جاهزة، ولماذا الوجوه حزينة هكذا، لكنهم شعروا أن شيئًا يُنتزع منهم.

إيمان وقفت قرب الباب، تحاول أن تخفي اضطرابها.

مولودة كانت تنظر إلى جميلة طويلًا، كأنها تريد أن تقول كل شيء ولا تعرف من أين تبدأ.

أما زهراء... فكانت جالسة في الداخل، صامتة، لا تمنع ولا تودّع.

كأنها تعلم أن بعض الرحلات لا يمكن إيقافها، حتى لو عادت صاحببتها يومًا.

عند لحظة المغادرة، اقتربت جميلة من مولودة وحدها.
كان وجهها مختلفًا هذه المرة... ليس وجه الابنة العائدة،
بل وجه امرأة مرّت من تجربة أثقل من أن تُقال بسهولة.
همست:

- مولودة... أريد أن أقول لك شيئًا.

أشارت مولودة أن تتكلم.

ترددت جميلة قليلًا، ثم قالت بصوت منخفض:

- أنا لا أعيش بخير هناك.

تجمدت ملامح مولودة.

تابعت جميلة، وكأن الكلمات تخرج بصعوبة من صدرها:

- أنا أتعب...

أنا أهدّد...

وأحيانًا أشعر أنني محاصرة داخل حياة لا أستطيع الهروب منها.

اقتربت أكثر، وخفّضت صوتها:

- هو ليس كما يبدو...

خبيث... يهددني بالأطفال... يقول إنه سيأخذهم مني إذا حاولت أن أتركه.

ارتجفت مولودة.

لم تكن تتوقع هذا بهذا الشكل.

قالت ببطء:

- يعني... أنتِ لا تعيشين حياة عادية هناك؟

هزّت جميلة رأسها:

- لا.

ثم توقفت لحظة، كأنها تتردد بين قول الحقيقة كاملة أو الهروب منها.

وأخيرًا قالت:

- وأحيانًا... أشعر أنه ليس فقط عنفًا...

بل شيء أخطر... يضغط عليّ نفسيًا... يجعلني أصدق أنني لا أستطيع الخروج.

صمت ثقيل سقط بينهما.

مولودة لم تعرف ماذا تقول.

فقط مدت يدها وأمسكت يد جميلة بقوة.

وقالت بصوت منخفض لكنه ثابت:

- لا تبقي وحدك في هذا.

رفعت جميلة عينيها إليها، وفيهما خوف قديم لم ينته.

ثم التفتت نحو البيت.

نحو زهراء... نحو مصطفى... نحو كل شيء عادت إليه
للحظة فقط.

همست:

- أنا لا أعرف متى سأعود...

لكنني أعرف أنني لست بخير.

ثم احتضنت مولودة سريعًا، احتضانًا يشبه الاعتراف
الأخير، وغادرت.

وبقيت المزرعة خلفها...

هادئة من الخارج...

لكنها هذه المرة تحمل قلقًا جديدًا لم يكن موجودًا من
قبل.

رحيل زهراء

مرت أشهر منذ عودة جميلة إلى ديارها في إيطاليا، وعاد البيت إلى هدوئه الثقيل، ذلك الهدوء الذي لا يُشبه السلام بقدر ما يُشبه الانتظار.

كانت زهراء خلال تلك الفترة مختلفة... أقل قسوة، أكثر صمتًا، وكأن شيئًا في داخلها انطفأ تدريجيًا دون أن يلاحظه أحد بالكامل.

كانت تجلس كثيرًا قرب النافذة، تنظر إلى الطريق نفسه، إلى الأفق نفسه، إلى الفراغ نفسه... وكأنها ما زالت تنتظر شيئًا لن يأتي.

إيمان كانت تراقبها بصمت، تشعر بأن جدتها ليست كما كانت، لكنها لم تجد الكلمات لتسأل.

في صباح يوم هادئ، خرجت زهراء إلى الحديقة كعادتها. جلست في مكانها المعتاد، تحت الضوء الخفيف، وعيناها على البعيد.

ثم ساد صمت طويل.

لم يكن هناك أي شيء يُنذر بنهاية مختلفة.

لا صرخة، لا حركة مفاجئة، لا ضجيج.

فقط سكون ثقيل... كأن الهواء نفسه توقف للحظة
احترامًا لما يحدث.

عندما وصلت إيمان، توقفت فجأة.

شعرت أن شيئًا في المشهد غير مكتمل... غير حي.

اقتربت ببطء.

نظرت إلى زهراء طويلاً.

ثم فهمت.

تراجعت خطوة، ويدها ترتجف على فمها.

همست بصوت مكسور:

"جدتي..."

لكن الاسم بقي معلقًا في الهواء دون جواب.

زهراء ماتت.

زهراء ماتت.

لكنها لم تذهب كقاسية كما ظنها الجميع يومًا...

بل كأم بقيت عيناها طوال حياتها معلقتين على باب،

كانت تنتظر أن يُفتح... ولو متأخرًا جدًا.

ليس كحادث صاخب...

بل كرحيل هادئ، يشبه نهاية انتظار طويل لم يُعلن عنه أحد.

وبقي البيت بعدها صامتًا أكثر من أي وقت مضى...

كأنه فقد آخر صوت كان يربط ماضيه ببعضه.

نعم.

صامتًا.

صامتًا.

ساد الحزن المزرعة كما لم يسبق له أن ساد من قبل.

لم يكن حزنًا صاخبًا...

بل كان صمتًا ثقیلاً، كأنه تمدد في الهواء وغطى كل شيء.

مع رحيل زهراء، لم يرحل شخص فقط...

بل رحل "نظام كامل" كان يحكم هذا المكان.

كانت قاسية، نعم...

لكن قسوتها كانت تشبه جدارًا عظيمًا يحمي المزرعة من الفوضى.

صوتها كان يُخيف الخدم،

حضورها كان يفرض النظام،
ونظرتها كانت تكفي لتمنع أي اقتراب غير محسوب.
وأحياناً... في الليالي البعيدة،
كان يُسمع صوتها وهي تصرخ على أحد الخدم، أو تأمر
بحزم،
كأنها كانت تحرس المكان بطريقتها القاسية، حتى وهي في
بيتها.
كان الخوف جزءاً من الحياة هنا...
لكن أيضاً كان هناك "نظام".
الآن... اختفى كل شيء.
المزرعة بدت أوسع من قبل،
لكنها لم تعد آمنة كما كانت.
الهدوء الذي حلّ مكان زهراء لم يكن هدوء طمأنينة...
بل هدوء فراغ.
كأن الجدار العظيم سقط، وبقيت الأرض مكشوفة
للعالم.
مصطفى تغيّر أكثر من الجميع.

لم يعد يتكلم كثيرًا.
كل جمعة، كان يذهب إلى قبر زهراء. يجلس هناك طويلاً.
لا يطلب شيئاً، ولا يقول الكثير.
فقط صمت ثقيل... يشبه رجلاً فقد جزءاً من توازنه، ولم
يعد يعرف كيف يعيده.
إيمان كانت تراقب كل هذا بصمت.
كانت تشعر أن البيت فقد شيئاً لا يُعوّض.
ليست فقط زهراء كإنسانة...
بل زهراء كقوة كانت تمسك كل الخيوط معاً، حتى لو
كانت خيوطاً مؤلمة.
ومولودة...
كانت تنظر إلى المزرعة كأنها ترى وجهًا جديدًا لم تعرفه
من قبل.
تسأل نفسها بصمت:
"هل كان الخوف هو ما يجعل هذا المكان واقفًا؟"
أم أن الحب وحده لا يكفي لحمايته؟"
مرت أسابيع على الحال نفسها.

لا صراخ...
لا أوامر حادة...
لا خطوات ثقيلة لزهراء في الممرات.
فقط حياة جديدة...
أخف في الصوت،
وأثقل في الشعور.

الحقيقة التي فتحت بعد الموت

لم ينتهِ حزن البيت عند دفن زهراء.

بل كأن الموت، بدل أن يغلق الأبواب، فتح بابًا أخطر من كل ما سبق.

في أيام العزاء، امتلأت المزرعة بالوجوه، بالأصوات الخافتة، وبالناس الذين يأتون وفي عيونهم فضول أكثر من الحزن.

وكانت أخوات زهراء بين الحاضرين.

نسوة يحملن ذاكرة قديمة، وخصومات أقدم، وصممتًا طال سنوات.

في البداية، جلسن بهدوء.

لكن الهدوء لم يدم طويلًا.

في إحدى اللحظات، وبين حديث بدأ عاديًا ثم انحرف، خرجت الحقيقة كما يخرج الشرر من حجر قديم.

قالت إحداهن بصوت مسموع:

- جميلة ليست ابنة زهراء.

ساد صمت مفاجئ.

ثم أضافت أخرى، وكأنها تكمل ما انتظرته طويلاً:

- ولا وسام أيضاً.

رفعت العيون دفعة واحدة.

البيت كله شعر أن الهواء تغير.

إيمان تجمدت مكانها.

مولودة شهقت بخفة، رغم أنها كانت تعرف بعض الخيوط القديمة.

أما مصطفى، فرفع رأسه ببطء، كأنه يعرف أن شيئاً ثقیلاً سيقع الآن.

تابعت إحدى الأخوات بلهجة حادة:

- كلتاهاما متبنيتان... والجميع يعرف هذا.

ثم نظرت نحو الجالسين وأضافت:

- ومن لا يحمل الدم... لا يحمل الإرث.

كانت الجملة كافية لتشعل المكان.

لم يعد الأمر حزنًا على زهراء.

صار حديثًا عن المال، عن الأرض، عن البيت، عن المزرعة... وعن من يملك الحق في كل ذلك.

وسام وقفت فجأة.

وجهها شاحب، وعيناها مشتعلتان.

قالت بصوت مرتجف:

- أنا كنت أعرف أنني مختلفة... لكن ليس هكذا.

ثم نظرت نحو الجميع:

- ولماذا الآن؟

لماذا لم تقولوا هذا إلا بعد موتها؟

جميلة، التي كانت قد عادت للعزاء، شعرت أن الأرض
تميد تحتها.

لم تكن الصدمة في التبني نفسه... بل في الطريقة التي قيل
بها.

كأن حياتهما اختزلت فجأة في كلمة واحدة:

متبنيات.

إيمان شعرت بصداق حقيقي يضرب رأسها.

ليس من الضجيج... بل من سقوط المعاني.

من كانت العائلة إذًا؟

ومن كان الحب؟

ومن يقرر من يستحق البقاء؟
أما أخوات زهراء، فوقفن في صف واحد تقريبًا.
وقالت أكبرهن ببرود:
- نحن أهل الدم.
ونحن أصحاب الحق.
وفي تلك اللحظة، لم تعد المزرعة بيتًا حزينًا...
بل صارت ساحة حرب.
حرب بدأها الموت...
وأشعلتها الحقيقة حين جاءت متأخرة جدًا.
منذ اللحظة التي خرجت فيها الحقيقة من أفواه أخوات
زهراء، لم تعد وسام كما كانت.
كانت جالسة أثناء العزاء ساكنة من الخارج...
لكن داخلها كان شيء ينهار بصوت عالٍ.
كلمة واحدة فقط كانت تدور في رأسها بلا رحمة:
متبناة.
دخلت غرفتها وشفقت الباب بعنف.

وقفت أمام المرأة تنظر إلى وجهها طويلاً، كأنها تراه لأول مرة.

ثم همست:

- من أنا؟

وفي لحظة غضب، دفعت المرأة فسقطت على الأرض وتكسرت.

في الخارج، كان البيت غارقاً في توتر ثقيل.

مولودة تبكي بصمت.

إيمان تمشي مرتبكة بين الغرف.

ومصطفى جالس على كرسيه، يضع يده على جبينه كأنه يحمل عمراً كاملاً فوق رأسه.

خرجت وسام فجأة.

عيناها حمراوان، وصوتها مرتجف من شدة الغضب.

صرخت:

- لماذا رييتموني على كذبة؟

ساد صمت مربع.

ثم تابعت وهي تشير إلى الجدران:

- هذا البيت كله كذب!

قالت مولودة باكية:

- يا ابنتي...

قاطعتها وسام بعنف:

- لا تقولي ابنتي!

أنا لست ابنة أحد!

ارتجفت مولودة، وتراجعت.

اقتربت إيمان منها:

- وسام... اسمعيني.

التفتت إليها بسرعة:

- وأنتِ؟ هل كنت تعرفين؟

قالت إيمان بصدمة:

- لا... أقسم لك.

لكن وسام لم تعد قادرة على تصديق أحد.

اندفعت نحو الباب الكبير تريد الخروج.

كانت تمشي بسرعة، كأنها تريد الهروب من البيت، من
الأسماء، من الوجوه كلها.

لكن قبل أن تصل...

وقف مصطفى أمامها.

رجل عجوز، يعرج قليلاً، متعب الجسد...

لكنه في تلك اللحظة بدا كجدار لا يُكسر.

قال بصوت منخفض لكنه ثابت:

- لن تخرجي.

صرخت:

- ابتعد!

لم يتحرك.

قال:

- اكسري ما شئتِ هنا...

اصرخي... ابكي... اكرهينا جميعاً...

ثم رفع عينيه إليها:

- لكن لن أتركك تخرجين وأنتِ تنزفين من الداخل.

تجمدت وسام.

كانت هذه أول مرة ترى مصطفى بهذا الحزم منذ سنوات.

قالت وهي ترتجف:

- أنا لا أنتمي إلى هذا المكان!

اقترب خطوة واحدة، وقال:

- الدم لا يصنع البيت دائماً.

ثم وضع يده على صدره:

- هناك أناس ننتمي إليهم لأنهم تعبوا علينا... لا لأنهم أنجبونا.

سقطت دموع وسام فجأة.

حاولت أن تخفيها، لكنها لم تستطع.

ضربت الباب بيدها، ثم انهارت جالسة على الأرض.

جلست تبكي كطفلة صغيرة فقدت اسمها.

اقترب مصطفى بصعوبة، وجلس قربها رغم ألم رجله.

لم يلمسها فوراً.

فقط قال:

- إذا كنتِ تبحثين عمّن أنتِ...
فابدئي من هنا. وأشار إلى قلبها.
في تلك الليلة، لم تغادر وسام البيت.
لكن شيئاً فيها...
كان قد خرج ولن يعود كما كان.
أما جميلة، فكانت جالسة في ركن من الصالون، لا تتكلم
كثيراً. لكن وجهها لم يكن هادئاً.
كان فيه شيء يشبه الصدمة التي لم تستقر بعد.
حين بدأت كلمات أخوات زهراء تنتشر داخل البيت، لم
تفهم جميلة في البداية.
ثم وصلها المعنى كاملاً.
متبناة.
الكلمة سقطت داخلها كشيء غريب لا ينتمي إلى حياتها.
رفعت نظرها ببطء نحو مولودة.
وقالت بصوت منخفض:
- هل هذا صحيح؟
مولودة لم تجب فوراً.

صمتها كان الجواب الأقسى.

في تلك اللحظة، شعرت جميلة أن الأرض لم تعد ثابتة
تحت قدميها.

كل ما كانت تعرفه عن نفسها بدأ يتراجع خطوة خطوة.

زهراء...

الأم...

البيت...

حتى الاسم الذي كانت تحمله داخل هذا المكان...

صار له معنى مختلف فجأة.

اقتربت إيمان منها محاولة أن تهدئها:

- جميلة... لا تسمعي كل شيء هكذا...

لكن جميلة قاطعتها بصوت مرتجف:

- إذا لم أكن ابنتها...

فمن أنا هنا؟

لم يرد أحد.

في الخارج، كان صوت وسام يعلو في لحظة انهيارها.

لكن جميلة لم تكن تسمع التفاصيل جيدًا.
كانت تسمع فقط كلمة واحدة داخل رأسها:
لا تنتمي.

جلست جميلة ببطء.
وضعت يدها على صدرها كأنها تحاول أن تثبت نفسها في
مكانها.
وقالت بصوت خافت جدًا:

- أنا ضعت مرتين...

مرة هناك... ومرة هنا.

مولودة اقتربت منها، لكنها لم تجد كلمات.
أما مصطفى، فكان يراقب من بعيد بصمت ثقيل.
وفي تلك اللحظة، فهمت جميلة شيئًا مؤلمًا جدًا:
أن البيت الذي عادت إليه...

لم يعد يعرفها كما كانت تعتقد.
ولا هي تعرف نفسها كما كانت تظن.

تمرد وسام من جديد

لم تهدأ وسام بعد تلك الليلة.

بكت، صرخت، وانكسرت أمام الجميع... لكن شيئاً فيها لم يلتئم.

بل على العكس، بدا وكأن الجرح حين انكشف... بدأ يغيرها أكثر.

في الأيام التالية، صارت وسام أكثر حدة. لا تجلس مع أحد طويلاً،

لا ترد إلا بكلمات قصيرة، وتنظر إلى البيت كله وكأنه متهم.

إذا ناداها أحد، تتأخر في الرد. إذا سُئلت، أجابت بعصبية.

إذا نُصحت، ابتسمت بسخرية باردة.

مولودة حاولت احتواءها.

كانت تدخل غرفتها بالطعام، ترتب لها المكان، تسألها بلطف:

- هل تريدين شيئاً؟

لكن وسام كانت ترد أحياناً دون أن تنظر إليها:

- أريد الحقيقة... إن كانت عندك.

فتخرج مولودة بقلب أثقل من قبل.

أما إيمان، فكانت أكثر من يشعر أن وسام لا تغضب من الناس... بل من نفسها.

دخلت عليها ذات مساء، وجدتھا تحديق في المرأة.

قالت إيمان:

- إلى متى ستبقيين هكذا؟

أجابت وسام دون أن تلتفت:

- إلى أن أعرف من أنظر إليه في هذا الزواج.

ثم بدأت مرحلة أخرى. صارت تخرج كثيرًا من البيت.

تعود متأخرة، أحيانًا بلا تفسير.

تبدل ملابسها بسرعة، وتتعطر بطريقة مختلفة، كأنها تريد أن تخلع المزرعة من جلدها.

مصطفى كان يراها ويصمت. لكن صمته هذه المرة لم يكن تجاهلاً... بل خوفًا.

وفي إحدى الليالي، عادت وسام متأخرة جدًا.

دخلت وهي تضحك مع نفسها، ثم توقفت حين رأت الجميع في الصالون.

قالت مولودة بغضب ممزوج بالقلق:

- الساعة تجاوزت منتصف الليل!
رفعت وسام كتفيها بلا مبالاة:
- والوقت يخص من؟
ضربت مولودة الطاولة بيدها:
- هذا البيت له حرمة!
اقتربت وسام خطوة، وعيناها تشتعلان:
- أي بيت؟
بيت لم يخبرني من أنا إلا بعد موت صاحبه؟
ساد صمت جارج.
ثم تابعت بصوت مرتفع:
- أنتم تريدون مني الاحترام...
ولم تعطوني حتى الحقيقة!
تحرك مصطفى ببطء من كرسيه.
نظر إليها طويلاً، ثم قال:
- الوجد لا يعطيك الحق أن تحرق نفسك.
لكن وسام ردّت بسرعة:

- ومن قال إنني أخاف النار؟

وصعدت إلى غرفتها، وأغلقت الباب بقوة اهتز لها البيت كله.

في تلك اللحظة، فهمت إيمان شيئًا مرعبًا:

أن تمرد وسام لم يعد غضب فتاة...

بل صار حربًا مفتوحة مع كل ما عاشت فيه.

في الوقت الذي كانت فيه وسام تشتعل غضبًا، وتكسر بصوتها ما بقي من هدوء البيت...

كانت جميلة على النقيض تمامًا.

جلست في الصالون بهدوء غريب، كأن الكلمات التي سقطت على الجميع... لم تستطع أن تهزها كما هزّت الآخرين.

عرفت الحقيقة.

عرفت أنها متبناة.

ومع ذلك... لم تصرخ.

لم تسأل كثيرًا.

لم تنهر.

كان في وجهها شيء يصعب تفسيره.

ثبات بارد...

أو تعب قديم تعلّم كيف يختبئ.

كانت تنظر إلى الجالسين بنظرات طويلة، صامتة، كأنها ترى ما وراء الكلام.

إيمان راقبتها كثيرًا، ولم تفهم.

كيف يمكن لإنسانة سقط فوق رأسها تاريخ كامل... أن تبقى هكذا؟

ربما لأن جميلة عاشت ما هو أقسى من هذه الحقيقة.

ربما لأنها امرأة تعوّدت على قسوة زوجها، وتهديده، وصمته الجارح...

تصبح صدمات البيت القديم أقل قدرة على كسرها.

أو ربما...

لأن بعض الناس، حين يتألمون كثيرًا، يتوقفون عن إظهار الألم.

في المساء، اقتربت منها إيمان.

جلست قريبا، وسألت بصوت خافت:

- ألا يوجعك ما سمعته؟

نظرت جميلة إليها طويلًا.

ثم ابتسمت ابتسامة صغيرة، بلا فرح.

وقالت:

- الوجد لا يختار شكله دائمًا.

سكتت لحظة، ثم أضافت:

- هناك أخبار تبكي الناس...

وهناك أخبار تجعلهم يصمتون فقط.

لم تعرف إيمان ماذا تقول.

كانت تشعر أن جميلة لا تتكلم من مكان عادي...

بل من عمق تعب طويل.

في تلك الليلة، رأت مولودة جميلة واقفة وحدها قرب
النافذة.

لا تبكي.

لا تتحرك.

فقط تنظر إلى الظلام.

كأنها تعرف أن الإنسان قد يخسر اسمه،

ويخسر أهله،

ويخسر حياته...

ثم يبقى واقفاً، فقط لأنه تعلّم الوقوف وسط الخراب.

أما وسام، فكانت تصرخ في الأعلى.

وأما جميلة...

فكانت أكثرهم هدوءاً،

وربما أكثرهم ألماً.

يوم الإرث

جاء اليوم الذي انتظره البعض بشهوة... وآخرون بصمت.
يوم تقسيم إرث زهراء.

منذ الصباح، كان البيت مشحونًا بتوتر لا يُرى، لكنه يُحس في طريقة المشي، في نبرة السلام، وفي نظرات العيون.

اجتمع الجميع في الصالون الكبير.

إخوة زهراء وأخواتها حضروا بوجوه جامدة، كأنهم لم يأتوا للعزاء المتأخر... بل لاسترجاع ما يرونه حقًا قديمًا.

مصطفى جلس في زاوية، صامتًا كعادته.

مولودة قربته.

إيمان واقفة خلفهما، تراقب كل شيء بعين تعرف أن هذا اليوم لن يمر بسلام.

أما جميلة، فجلست هادئة.

ووسام كانت متوترة، تتحرك كثيرًا، كأنها تستعد لمعركة.

بدأ الكلام هادئًا.

ثم ما لبث أن تغير.

قال أحد إخوة زهراء بصوت حاد:

- قبل كل شيء... يجب أن يكون واضحًا أن الإرث لأهل الدم.

ساد صمت ثقيل.

ثم تابع وهو ينظر نحو الفتيات:

- أما هؤلاء... فلا حق لهن.

شعرت إيمان أن الهواء اختنق.

مولودة قبضت على طرف ثوبها بقوة.

أما وسام، فوقفت فورًا.

وقالت بصوت مرتفع:

- هؤلاء؟

من تقصد بهؤلاء؟

نظرت إليها المرأة العجوز ببرود:

- أقصد المتبنيات.

انفجرت وسام:

- تربينا في هذا البيت، أكلنا من خير، بكينا فيه، وخدمناه...

واليوم أصبحنا "هؤلاء"؟
قالت إحدى الأخوات:
- العاطفة شيء... والحق شيء آخر.
مصطفى ظل صامتًا.
ثم وقف بصعوبة.
ضرب عصاه على الأرض مرة واحدة.
فسكت الجميع.
رفع رأسه وقال بصوت متعب لكنه حاسم:
- الويل لكم.
ساد الصمت مرة أخرى.
صمت أثقل من كل الصراخ السابق.
وفي تلك اللحظة، فهم الجميع أن يوم الإرث... لم يكن
عن المال فقط.
بل عن معنى العائلة نفسها.
تكرر المشهد نفسه والكلمات الجارحة نفسها.
اجتمع الجميع يوم تقسيم إرث زهراء.

الوجوه متوترة، والكلمات جاهزة للخروج.

قال أحد إخوتها ببرود:

- الإرث لأهل الدم فقط... أما الفتيات فلا حق لهن.

وقفت وسام غاضبة، لكن مولودة سبقتها.

نهضت بعينين مشتعلتين وقالت:

- هؤلاء أخواتي.

ترين في هذا البيت، وعشن عمرهن هنا.

وسيدخلن في هذا الإرث... شئتم أم أبيتم.

ساد الصمت.

حاول بعضهم الاعتراض، لكن مولودة لم تتراجع.

أما مصطفى، فظل صامتًا، وفي عينيه رضا لم يقله.

جميلة نظرت إلى مولودة بامتنان.

ووسام، لأول مرة، شعرت أن أحدًا يدافع عنها حقًا.

وبعد جدال طويل...

دخلت الفتيات في الإرث.

وهدأت العاصفة، لكن أثرها بقي في القلوب.

بعد انتهاء يوم الإرث، رحلت جميلة إلى ديارها من جديد،
تحمل صمتها القديم كما جاءت به.

والتحقت إيمان بالجامعة، فصار البيت يفقد حضورها
شيئًا فشيئًا، كما يفقد الشجر ظلّه عند الغروب.

أما وسام، فقد ازداد تمردها.

صارت تخرج كثيرًا، وتتأخر أكثر، ولا تقبل نصحًا ولا
سؤالًا.

مولودة حاولت أن تكون صارمة معها، ترفع صوتها
أحيانًا، وتمنعها أحيانًا أخرى، لكن وسام كانت تقابل ذلك
بسخرية باردة أو صمت مستفز.

أما مصطفى، فلم يعد يرد النقاش.

كان يجلس طويلًا في الحديقة، كأن ما بقي من عمره لا
يحتمل معارك جديدة.

ومع مرور الأيام، تغيّرت المزرعة.

بعد أن كانت بيتًا له هيبة ونظام، صارت مثل سوق
أسبوعي.

وجوه جديدة تدخل وتخرج، شباب لا يعرفهم أحد،
ضحكات عالية، أبواب لا تُغلق، وفوضى لم يألّفها المكان
يومًا.

وكان كل من يرى ذلك، يعرف في داخله...
أن رحيل زهراء لم يترك فراغًا فقط،
بل فتح الباب لكل ما كان يخشاه الجميع...
البيت الذي كان يومًا يسوده النظام... صار فوضى
مفتوحة.

وسط هذا المشهد، دخلت مولودة إلى الصالون.
كانت عيناها ممتلئتين غضبًا وحرزًا.
رأت وسام، ذات التسعة عشر عامًا، جالسة بين مجموعة
من الشباب، تضحك بثقة مستفزة، وكأنها سيدة المكان.
تقدمت مولودة خطوة، ثم صاحت:

- أخرجيهم من هنا!
ساد الصمت فجأة.
التفت الجميع نحوها.
أما وسام، فرفعت رأسها ببطء، ونظرت إليها ببرود قاسي.
ثم قالت:

- ومن أنتِ حتى تأمريني؟
ارتجف وجه مولودة.

لكنها تماسكت، واقتربت أكثر.

وقالت بصوت اختلط فيه الغضب بالدموع:

- أنتِ كابنتي.

أنا من كنتُ مثل أمكِ تسعة عشر عامًا!

أنا من سهرت عليكِ، وأطعمتكِ، وخفت عليكِ حين
بكِيتٍ ومرضتٍ!

ثم أشارت إلى البيت كله:

- أنا من أدخلتكِ في هذا الإرث... وفي هذا البيت...

ضحكت وسام ضحكة قصيرة، جارحة.

ثم قالت أمام الجميع:

- إن كنتِ تعبتي كل هذا التعب... فارتاحي.

ثم اقتربت منها أكثر، وقالت بحدة:

- اخرجي من المزرعة.

اخرجي، هيا ارحلي.

اخرجي... اخرجي.

تجمد المكان.

كأن الجملة سقطت كحجر على صدر مولودة.
تراجعت خطوة، وحدقت في وسام غير مصدقة.
ثم التفتت نحو مصطفى.
كان جالسًا في طرف الغرفة، متكئًا على عصاه، صامتًا.
ركضت إليه بنظرات مكسورة، وقالت:
- تكلم!

قل لها من أنا!
قل لها إنني كنتُ أمًّا لها حين لم يكن لها أحد!
قل لها إنني ابنتك قبل أن تكون هي ابنتك!
رفع مصطفى رأسه ببطء.
نظر إلى مولودة طويلًا... ثم إلى وسام.
اهتزت شفتاه، لكن صوته لم يخرج.
كان يرى فتاة في التاسعة عشرة، ضائعة وغازبة، ويخاف
أن يدفعها بكلمة واحدة إلى الهاوية.
فاختار الصمت.
صرخت مولودة:

- حتى أنت؟! -

بعد كل هذا العمر... تتركني وحدي؟

اقتربت وسام منها، وقالت ببطء، وكل كلمة كأنها سكين:

- ابتعدي عن طريقي.

اتركيني أعيش حياتي.

أنا أكرهك...

وأكرهكم جميعًا.

انكسرت ملامح مولودة.

سقطت دموعها أخيرًا، لا كدموع امرأة تبكي... بل كدموع
عمر كامل ينهار.

نزعت منديلها من رأسها، وضغطته بين يديها
المرتجفتين.

ثم همست:

- كنتُ مثل أمك... تسعة عشر عامًا.

استدارت، وخرجت من الصالون بخطوات ثقيلة.

مرّت عبر الفناء، والليل يبتلع ظلها شيئًا فشيئًا.

ولأول مرة، شعرت مولودة أن المزرعة التي أعطتها عمرها
كله...

قد طردتها بلسان من ربّتها بيديها.

الشباب الذين كانوا يضحكون قبل دقائق، خرجوا واحدًا
تلو الآخر دون كلمة.

حتى وسام صعدت إلى غرفتها وهي تضرب الباب خلفها
بعنف.

وبقي مصطفى وحده في الصالون.

جلس على كرسيه الخشبي، ممسكًا بعصاه.

ذلك الرجل الذي كان يومًا قوي البنية، صار الآن شيخًا
يثقل عليه الوقوف، وتؤلّمه رجله كلما تحرك.

لكنه في تلك الليلة... كان الألم في قلبه أكبر من جسده.

مرّت دقائق طويلة.

ثم نهض بصعوبة.

استند إلى عصاه، وسار ببطء نحو الباب.

كل خطوة كانت تكلفه جهدًا، لكن شيئًا داخله كان يدفعه.

خرج إلى الفناء.

الليل ساكن، والهواء بارد.

وفي طرف الحديقة، قرب شجرة قديمة، كانت مولودة
جالسة وحدها.

ظهرها منحني، وكتفاها يهتزان من بكاء مكتوم.

اقترب مصطفى ببطء.

توقف أمامها.

لم ترفع رأسها.

قال بصوت خافت، مكسور:

- مولودة...

لم تجب.

جلس قربها بصعوبة، وأنين خفيف خرج منه وهو يثني
ركبته.

ثم قال:

- سامحيني.

رفعت رأسها فجأة.

كانت عيناها حمراوين.

قالت بمرارة:

- على ماذا أسامحك؟

على صمتك؟

أم على أنني أصبحت غريبة في بيتي؟
خفض مصطفى رأسه.

ثم قال:

- أعرف أنني خذلتك.

لكنني خفت عليها.

هي صغيرة... ضائعة... وإذا كسرتها الليلة قد أخسرها إلى الأبد.

ردّت مولودة بسرعة:

- وأنا؟

ألم تخف أن تخسرنى أنا أيضًا؟

سكت مصطفى.

كان السؤال أثقل من جوابه.

ثم قال بعد لحظة:

- أنتِ لم تكوني يومًا خارج قلبي.

أنتِ سند هذا البيت... وأنتِ من بقي حين رحل الجميع.

انهمرت دموع مولودة من جديد.

لكن هذه المرة بهدوء.

قالت بصوت مرتجف:

- أنا لم أطلب منك مألًا... ولا إرثًا... ولا اسمًا.

كنت أريد كلمة واحدة أمامها.

كلمة تعيد لي عمري.

ارتجفت يد مصطفى.

ثم وضعها على يدها لأول مرة منذ سنوات طويلة.

وقال:

- إن كان لي ابنة من الوفاء... فهي أنتِ.

أغلقت مولودة عينيها وبكت.

أما مصطفى، فنظر إلى المزرعة الممتدة أمامه، وهمس:

- هذا البيت يتساقط يا مولودة...

وأنا لم أعد أملك يدين لأمسكه.

بعد اشتداد تمرد وسام، وصعوبة السيطرة على ما يحدث داخل المزرعة، بدأت الأمور تخرج عن يد الجميع.

البيت الذي كان يحكمه صمت مولودة ونظامها... صار
بلا توازن.

مولودة، التي أنهكها كل ما جرى، قررت أخيرًا أن تغادر.
لم تعد قادرة على البقاء وسط بيت لا يسمعها، ولا يحترم
وجودها، ولا يعترف بتعبها.
جمعت أغراضها بصمت، دون صراخ، دون مواجهة
أخيرة.

ثم رحلت عن المزرعة نهائيًا، متجهة إلى مدينة أخرى
حيث تعيش بناتها.

بنات مولودة كن قد التحقن بالجامعة.
إيمان كانت هناك مع أختها، بعيدتين عن المزرعة،
تحاولان بناء حياة جديدة وسط الدراسة والمدينة.
وهكذا وجدت مولودة مكانها الحقيقي أخيرًا... بين بناتها،
حيث لا صراع إرث، ولا فوضى، ولا تمرد لا ينتهي.

في المزرعة، لم يكن رحيلها حدثًا عاديًا.
كان فراغًا جديدًا يُضاف إلى فراغات البيت.
مصطفى صمت طويلًا حين علم بالأمر.
وسام لم تُبدِ ردّ فعل واضح، لكن عينيها خانتها للحظة.

أما البيت، فقد بدا وكأنه فقد آخر خيط كان يربطه باللاتزان.

وفي المدينة، بدأت إيمان وأختها حياة مختلفة. جامعة، دروس، شقة صغيرة، وأيام تمضي بعيدًا عن المزرعة.

لكن رغم المسافة... كان شيء من المزرعة يسكنهما دائمًا. مولودة هناك مع بناتها...

والمزرعة في الخلفية... تتفكك بصمت.

بعد رحيل مولودة من المزرعة، لم ينقطع خيطها بمصطفى. كانت تعود كل حين برفقة إيمان، تزورانه وتطمئنانه عليه، وتحاولان أن تبقياً له شيئاً من الألفة وسط بيت تغير كثيراً. في كل زيارة، كانتا تجدانه أكثر صمتاً وأكثر تعباً، كأن السنوات نزلت على كتفيه دفعة واحدة.

أما إيمان، فلم تكن تستطيع السكوت كلما رأت ما تفعله وسام. كانت الشجارات بينهما تتكرر باستمرار.

تقول لها بغضب:

- إلى متى هذا الحال؟ من هؤلاء الشبان الذين يدخلون البيت كل يوم؟

فترد وسام بسخرية:

- لا شأن لك بي.

وفي مرة أخرى قالت لها إيمان:

- هذا بيت، وليس مقهى مفتوحًا للغرباء.

فصرخت وسام:

- ومن نصّبك وصية عليّ؟

كانت كل محاولة من إيمان تنتهي بالفشل، بل كانت تزيد
حقد وسام وعنادها.

وفي الخارج، جلست مولودة مع مصطفى في الحديقة.
نظرت إلى البيت طويلًا، ثم قالت:

- أبي مصطفى، تعال نعيش في المنزل الموجود في المدينة،
هناك هدوء وأمان وراحة لك.

رفع مصطفى رأسه ببطء، وبدأ في عينيه تردد ثقيل. كان في
حيرة كبيرة، تمزقه فكرتان لا يستطيع الاختيار بينهما.

فالمزرعة لم تكن أرضًا وبيئًا فقط، بل عمره كله،
وذكرياته، والمكان الذي عرف فيه نفسه. كان يشعر أن
تركها يشبه اقتلاع ما بقي من روحه.

وفي الوقت نفسه، كانت وسام أمانة في عنقه. فتاة مراهقة
طائشة، مجروحة من الداخل، تائهة أكثر مما تبدو،
ويخشى إن تركها أن تسقط نهائيًا.

قال بصوت متعب:

- وكيف أرحل وأترك كل هذا؟ هنا حياتي... وهنا عشت عمري كله.

ثم سكت لحظة وأضاف:

- ووسام... لا أستطيع أن أتركها وحدها.

تنهدت مولودة بمرارة وقالت:

- وهل أصبحت البنت هي من يقرر مصير البيت؟
المزرعة صارت سوقاً بسبب وسام. دخول وخروج،
وضجيج، ووجوه لا نعرفها.

سكتت لحظة، ثم قالت بحرقة:

- الويل لهذه الفتاة الطائشة... إنها لا تعرف أنها تحرق
البيت وهي تضحك.

ظل مصطفى صامتاً، ينظر إلى الأرض أكثر مما ينظر إليها،
ثم قال بصوت خافت:

- هي صغيرة... ومجروحة... وستفهم يوماً.

هزّت مولودة رأسها بحزن وقالت:

- بعض الجراح لا تشفى وحدها، وبعض الناس لا يفهمون
إلا بعد الخراب.

قال مصطفى بعد صمت طويل، وصوته يخرج مثقلًا
بالتعب:

- رجاء... لا تحاسبوا الفتاة كثيرًا.

ثم رفع عينيه نحو مولودة وإيمان، وقال بحرقة خافتة:

- اتركوها مع جرحها.

هي لا تعرف كيف تعبّر، ولا كيف تطلب الحنان، ولا كيف
تقول إنها ضائعة.

سكت لحظة، ثم أضاف:

- هي تريد أن تعرف عائلتها... تريد أن تعرف من أين
جاءت، ومن تركها، ولماذا وجدت نفسها هنا دون خيط
يقودها إلى أصلها.

تنهد بعمق، وقال:

- ليس لها أي خيط تمسكه... لا اسم واضح، ولا ماضي
تعرفه، ولا وجه تعود إليه.

ثم هزّ رأسه بحزن:

- فلا تروا تمردها فقط... انظروا إلى وجعها.

كانت مولودة صامته، أما إيمان فخفضت عينيها.

وأكمل مصطفى بصوت انكسر في آخره:

- بعض الناس يصرخون لأنهم مدللون...

أما هي، فتصرخ لأنها تائهة.

مرت أشهر قليلة، ولم يتغير في المزرعة شيء إلا نحو الأسوأ.

وسام ازدادت طيشًا وتمردًا، وإيمان ازدادت ضيقًا وغضبًا. كانت كل واحدة منهما ترى الأخرى سبب الخراب، حتى صار اللقاء بينهما شرارة جاهزة للاشتعال.

وفي مساء خائق، انفجر الشجار الأكبر بينهما.

صرخت إيمان:

- إلى متى ستبقيين هكذا؟

أدخلت الغرباء إلى البيت، وضيعت هيئته، ولا ترين إلا نفسك!

ردت وسام بعينين مشتعلة:

- وأنتِ ماذا تريدين؟

أن تعيشي دور المنقذة؟ أنتِ لا شأن لكِ بي!

اقتربت إيمان أكثر، والغضب يسبق كلماتها:

- بل لي شأن، لأنك تحرقين ما بقي من هذا البيت!

فصرخت وسام:

- هذا البيت ليس بيتك!

وصلت الأصوات إلى مصطفى.

دخل متكئاً على عصاه، ووجهه ممتلئ إرهاقاً وغضباً.

نظر إلى الاثنتين، لكن عينيه توقفتا عند إيمان التي كانت ما تزال توبخ وسام.

وفي لحظة غضب لم يملك نفسه فيها، صرخ:

- يكفي!

ساد الصمت.

ثم أشار بعصاه نحو الباب وقال لإيمان:

- اخرجي من المزرعة الآن!

تجمدت إيمان في مكانها.

نظرت إليه غير مصدقة.

كانت أول مرة يطردها، وأول مرة يقسو عليها بهذا الشكل.

قالت بصوت مكسور:

- أنا؟ لأنني قلت الحقيقة؟

لكن مصطفى لم يجب.

كان صدره يعلو ويهبط من شدة الانفعال.
أما وسام، فوقفت خلفه صامتة، وفي عينيها انتصار بارد.
خفضت إيمان رأسها.
شعرت أن الجدار الأخير الذي كانت تستند إليه قد سقط.
استدارت ببطء، وخرجت من البيت والدموع تخنقها.
وفي الخارج، كان المساء ثقيلًا...
أما داخل المزرعة، فقد بقي مصطفى واقفًا، يعلم في
داخله أنه طرد قلبًا كان يحن عليه.

الجريمة

مرت شهور، وثقل البيت أكثر مما كان. أما مولودة، فقد سقطت طريحة المرض. بدا على وجهها اصفرار مفرغ، وانطفأ ذلك النشاط الذي كان يملأ المكان أينما حلت.

حين سمع مصطفى بخبر مرضها، لم ينتظر طويلاً. ذهب لزيارتها في المدينة، متكئاً على عصاه، يحمل في قلبه خوفاً لم يعترف به لأحد.

دخل عليها، فلما رآها على تلك الحال، ارتجفت ملامحه. جلس قربها، وكانت عيناه تفيضان بالبكاء وهو يحاول أن يخفيه.

قال بصوت مكسور:

- من أرهقك يا مولودة حتى صرتِ هكذا؟

ثم تنهد طويلاً وأضاف:

- اسمعي... سأبيع جزءاً من المزرعة. سأترك فقط البيت... والطريق إليه. لقد وجدت من يشتري الأرض مني.

رفعت مولودة عينيها إليه بصمت، بينما واصل كلامه بحرقة:

- لكن يا أسفاه...

اتصلت بجميلة حتى تعطيني الوكالة للبيع، فقالت: لا...
زوجي لن يقبل.

ثم أنهت المكالمة.

واتصلت بها مرارًا وتكرارًا... لكنها لا تجيب.

خفض رأسه، وكأن الكلام أثقل عليه من العمر كله.

ثم قال بحركة رجل خُذل:

- آه يا مولودة...

على سنين ربيتها، واحتضنتها، وصبرت عليها...

هذا جزائي؟

يا لها من ناكرة للجميل.

ساد الصمت في الغرفة.

كانت مولودة تنظر إليه بحزن عميق، لا تعرف هل تبكي
على مرضها... أم على رجل بدأ يكتشف متأخرًا أن من
أعطاهم قلبه، لم يردوا إليه إلا الخذلان.

بعد هنيهات من الصمت، كان يُسمع فيها صوت أنفاس
المرض أكثر من الكلام، رفع مصطفى رأسه ببطء ونظر إلى
مولودة.

قال بصوت خافت:

- وإيمان... كيف حالها؟

أجابت مولودة:

- في الجامعة.

سكت لحظة، ثم بدا على وجهه شيء من الحنين.

وقال:

- قولي لها... أن تزورني في المزرعة.

لقد اشتقت لجلستها... ولقهوتها.

ابتسمت مولودة رغم تعبها، وقالت محاولة أن تخفف عنه:

- سأقول لها... وستأتي راكضة.

هزّ مصطفى رأسه ببطء، وكأن الجملة أعادته إلى أيام أهدأ.

ثم نهض بصعوبة، متكئاً على عصاه.

توقف عند الباب، التفت إليها بنظرة طويلة، نظرة رجل يريد أن يقول أشياء كثيرة ولا يملك الوقت.

ثم خرج.

رحل مثقل الخطوات...

بعد أن أخبرت مولودة إيمان أن مصطفى سأل عنها، وأنه قال: "قولي لإيمان أن تزورني... لقد اشتقت لها ولجلساتها وقهوتها"، تغير شيء خفيف في داخلها، كأن قلبها تنفس بعد طول اختناق. لم تفكر كثيرًا، فقط حملت حقيبتها الصغيرة وركبت الحافلة متجهة إلى المزرعة.

جلست قرب النافذة، وأسندت رأسها بخفة، والمدينة خلفها تنسحب ببطء، بينما داخلها كان هناك بيت آخر، مزرعة أخرى، وصوت آخر يشبه الأمان. كانت تتذكر مصطفى وهو يضحك بصوت منخفض، طريق المزرعة، فنجان القهوة، الصمت الذي لم يكن وحشة يومًا.

ابتسمت... ابتسامة لا يعرفها أحد، لكنها كانت تشبه الاطمئنان الأخير قبل العاصفة.

كانت الحافلة تقترب من المزرعة شيئًا فشيئًا، والسماء في ذلك اليوم بدت مختلفة، لا تمطر ولا تشرق، فقط رمادية كأنها تنتظر شيئًا لا يُقال.

إيمان كانت صامتة، لكن داخلها لم يكن صامتًا.

شعرت فجأة بثقل غريب في صدرها، كأن الطريق أطول من المعتاد، وكأن شيئًا ما يتأخر عنها دون سبب واضح.

لم تعرف لماذا خطر في ذهنها مصطفى في تلك اللحظة.

ابتسمت بخفة، ثم همست لنفسها:

"سأراه قريبًا..."

لكن تلك الجملة لم تُشعرها بالراحة كما يجب... بل تركت فراغًا صغيرًا داخلها، لم تفهمه.

وفي تلك اللحظة بالذات...

فجأة... انشقّ الهواء.

صوت صفارات الإسعاف دخل كالسهم.

مرّت سيارتا إسعاف بجانب الحافلة بسرعة مخيفة، كأنهما تهربان من الزمن نفسه، الضوء الأحمر يقطع الطريق كجرح مفتوح لا يلتئم، والصوت يضرب صدرها قبل أذنيها.

ارتجفت إيمان.

لم تتحرك في البداية... فقط عيناها اتسعتا، كأن شيئًا في داخلها استيقظ دون إذن.

ثم همست بصوت مكسور، بالكاد يُسمع:

- حادث...

سكتت لحظة طويلة، وكأنها تحاول أن تقنع قلبها أن هذا لا يعنيها.

ثم أضافت:

- اللهم إن كانوا أحياء فاشفهم... وإن ماتوا فارحمهم...

لكن الدعاء هذه المرة لم يهدئ شيئاً بداخلها.

بل العكس.

زاد الخوف.

أدارت رأسها ببطء، تتابع السيارتين وهما تختفيان في الطريق الرئيسي، كأنهما تحملان سرّاً لا يحق لأحد أن يعرفه قبل وقته.

وبقي الفراغ.

حين اقتربت الحافلة من المزرعة، وكان موقعها يطلّ مباشرة على الطريق الرئيسية، بدأت ملامح المكان تتغير.

لم يعد هناك هدوء.

زحام...

أصوات متقطعة...

ناس واقفون بلا اتجاه...

سيارات متوقفة بشكل فوضوي كأنها فقدت أصحابها فجأة...

والطريق شبه مغلق.

شيء ما حدث... قبل أن تصل.

توقفت الحافلة.

لكن قلب إيمان لم ينتظرها.

نزلت.

وكان الأرض سحبتها من داخلها.

خطواتها لم تكن خطوات... كانت اندفاعًا مجهول
السبب.

اقتربت من الناس.

صوتها خرج متكسرًا، غير ثابت:

- ماذا يحدث؟... ماذا هناك؟

لم يجبها أحد في البداية.

كأن الجميع يخاف أن ينطق.

ثم جاء الصوت أخيرًا... رجل واحد، كأنه لا يريد أن يقول،
لكنه قيل عنه رغمًا عنه:

- لقد قُتل الرجل الفرنسي... وابنته.

توقفت اللحظة.

لم تسقط... لكنها لم تعد واقفة.

كأن جسدها نسي كيف يكون.

تكررت الكلمات داخلها ببطء مرعب:

الرجل الفرنسي...

وابنته...

ثم فجأة... انكسر شيء في صدرها.

سقطت الحقيبة من يدها دون وعي.

ارتجف فمها... لكن الصوت سبقها:

- أبي؟...

ثم صمت.

ثوانٍ ثقيلة... كأن العالم ينتظر أن تفهم.

ثم انفجر كل شيء دفعة واحدة.

سقطت إيمان على ركبتها في التراب.

لم تعد ترى الناس، ولا الطريق، ولا المزرعة التي كانت
تظن أنها تعرفها.

كل شيء أصبح بعيدًا... كأنه ينتمي لعالم آخر.

كان الصوت في داخلها أعلى من كل الأصوات:

الرجل الفرنسي...

وابنته...

ثم فجأة، كأن عقلها رفض الفهم، خرج اسمه بصوت
مكسور:

- أبي...

توقفت للحظة، كأنها تنتظر جوابًا من الفراغ.

لكن الفراغ لم يجب.

فانفجر داخلها كل شيء دفعة واحدة.

دفنت يديها في التراب، تشدّه كأنها تريد أن تعيد الأرض
إلى الوراء.

ثم صرخت، صوت لا يشبه الحياة:

- أبي...!

مصطفى...!

كرستيان...!

وسام...!

الويل...!

الويل، لقد مرّوا بجانبني... في سيارات الإسعاف!

كنت هناك... وأنا لم أعرف!

لم أودّعهم!

لم أودّع أحداً!

كانت تضرب الأرض، مرة بعد مرة، كأن التراب هو الوحيد
الذي بقي لها لتعاقبه.

لكن الأرض بقيت صامته.

صامته أكثر من أي وقت.

في تلك اللحظة، لم يعد الزحام حولها يُسمع.

لا الناس...

لا الأصوات...

لا الطريق...

كل شيء أصبح بعيداً جداً.

وكأن العالم قرر أن يتركها وحدها داخل صرختها.

رفعت رأسها أخيراً.

لكنها لم ترَ شيئاً.

فقط السماء.

كانت السماء هادئة بشكل مؤلم... لا تبكي، لا ترد، لا
تعتذر.

همست بصوت مكسور:

- هل هكذا تنتهون... دون أن أقول لكم شيئاً؟

ثم سككت.

طويلاً.

كأن الكلام نفسه مات.

في مكان ما خلفها، كانت المزرعة واقفة... نفس
الأشجار... نفس الطريق... نفس البيت...

لكنها لم تعد هي نفسها.

ولا هي.

حين بدأت الحقيقة تتكشف أمام إيمان، لم تكن تتوقع
أن يكون وقعها بهذا الشكل القاسي، ولا أن تصلها بهذه
البساطة التي تخفي وراءها كل هذا الخراب. فقد عرفت أن
أحد أفراد العصابة لم يكن غريباً كما ظنت في البداية، بل
كان ابن صديق قديم لمصطفى، ذلك الرجل الذي رافقه
لسنوات طويلة إلى المزارع، والذي كان يجلس معه
ويعمل بجانبه كأن بينهما ثقة لا يمكن أن تُكسر، ثقة
تشكلت عبر الزمن وبدا وكأنها ثابتة لا تهتز.

في تلك اللحظة، شعرت إيمان أن شيئاً ما داخلها توقف
فجأة، كأن الزمن نفسه فقد قدرته على الاستمرار، وكأن
الكلمات التي سمعتها لم تعد تنتمي إلى هذا العالم. لم تعد

الأصوات واضحة من حولها، ولم يعد لما يقال أي معنى، بل تحولت كل التفاصيل إلى فراغ ثقيل يضغط على صدرها دون رحمة، فراغ يجعلها عاجزة حتى عن ترتيب أفكارها أو تصديق ما يحدث.

ثم بدأت الصدمة تتعمق أكثر، ليس كحدث واحد، بل كانهيار داخلي بطيء ومؤلم، كأن شيئًا ما انكسر داخلها دفعة واحدة دون إنذار. لم تستوعب كيف يمكن أن يمتد الغدر إلى هذا الحد، وكيف يمكن أن يأتي من مكان كان يفترض أنه آمن، من دائرة كانت تعتبرها جزءًا من الحياة الطبيعية والذكريات القديمة التي لا تحمل تهديدًا.

ومع مرور الثواني، تحول ذلك الانكسار الصامت إلى غضب، غضب لم يكن صاخبًا في بدايته، بل كان حادًا من الداخل، ينهشها بصمت، ثم بدأ يتسع شيئًا فشيئًا حتى أصبح لا يمكن احتواؤه. لم تكن تبكي فقط، بل كانت ترتجف بالكامل، وكأن جسدها لم يعد قادرًا على حمل هذا الكم من الصدمة والخيانة في الوقت نفسه، وكأن كل ما كان يبدو ثابتًا في حياتها بدأ يتهاوى أمام عينيها دون أن تستطيع إيقافه.

وفي تلك اللحظة تحديدًا، لم يعد الألم مرتبطًا بالموت وحده، بل أصبح أعمق من ذلك بكثير، لأنه مسّ الثقة نفسها، تلك الثقة التي انهارت فجأة، وجعلت كل شيء يبدو وكأنه كان مجرد وهم طويل انتهى بأقصى صورة ممكنة.

كان سبب الجريمة في جوهره طمعًا في المال، بدأ كفكرة عابرة، ثم تحوّل مع الوقت إلى ظلّ ثقيل يخيم على كل شيء.

تقول بعض الروايات إن الحديث بدأ عن مبلغ كبير مرتبط بالمزرعة، قيل إنه يصل إلى أربعمئة مليون، حين كان مصطفى يفكر في بيع جزء من الأرض. لم يكن الأمر في بدايته أكثر من كلام يتداول بين الناس، إشاعة لم تتأكد، لكنها وجدت طريقها إلى العقول بسرعة، ونمت هناك بصمت حتى بدت وكأنها حقيقة.

ومع مرور الوقت، لم تعد الفكرة مجرد خبر بعيد، بل أصبحت هاجسًا، خاصة بعد أن تعطلت الصفقة عندما رفضت جميلة منح الوكالة اللازمة لإتمام البيع. ذلك الرفض لم يُنهِ القصة، بل أوقفها فقط على السطح، بينما بقيت الإشاعة تعمل في الخفاء، تتغذى على الطمع والتوقعات والاحتمالات.

وهكذا، لم تكن الجريمة وليدة لحظة واحدة، بل نتيجة مسار طويل تشكّل من كلام غير مؤكد، ورغبة لم تُضبط، وظنّ تحول إلى يقين في عقول من رأوا في المزرعة أكثر مما كانت عليه.

وفي النهاية، لم يكن المال هو المشكلة وحده، بل الطريقة التي تحوّل بها إلى فكرة مسيطرة، دفعت الأحداث كلها إلى الانكسار.

كذلك، لم يكن الألم ناتجًا عن الجريمة وحدها، بل عمّا سبقها أيضًا... عن ذلك الجرح الذي فتحه تمرد وسام دون أن تدرك.

فقد كانت هي من فتحت باب المزرعة لصديقها، ذاك الذي لم يأت وحده، بل كان برفقة آخرين لم تكن تعرف نواياهم الحقيقية. ظنّت الأمر لقاءً عابرًا، لحظة بسيطة لن تغير شيئًا.

وعندما رنّ هاتفها، خرجت مسرعة، دون أن تلتفت خلفها، تاركة باب المنزل مفتوحًا، دون أن تُغلقه على مصطفى، الذي كان في الداخل مستلقيًا، يشاهد التلفاز في هدوء، غير مدرك أن تلك اللحظة كانت كفيلة بتغيير كل شيء.

ولو أنها توقفت لحظة...

لو أنها أغلقت الباب بإحكام، لكان كل شيء مختلفًا.

لكنها لم تفعل.

فبقي الباب مفتوحًا، ودخل ما لم يكن متوقعًا، وبدأت النهاية من هناك.

تحت ضغط الخوف والصدمة، انهار مصطفى، وقدم الرقم السري للحساب الذي لم يكن يحمل سوى مبلغ بسيط، لا يساوي شيئًا أمام ما ظنّوه.

بعدها... خرجت الأمور عن حدود الفهم.

لم يبقَ من تلك اللحظات سوى أثر قاسٍ، يوحى بما حدث دون أن يُقال، أثر يكفي ليُدرِك أن النهاية لم تكن رحيمة.

وغادروا المكان كما دخلوا، تاركين خلفهم صمتًا ثقیلاً، وبيئًا لم يعد كما كان.

بعد انتهاء التحقيقات، تم دفن مصطفى ووسام، لكن لم يعد شيء كما كان.

حتى المزرعة نفسها بدت وكأنها فقدت روحها، كأن الأشجار التي اعتادت أصواتهم دخلت في صمت طويل لا نهاية له. كان المكان ممتلئًا بالناس في ساعات الدفن، لكن ما إن رحل الجميع، حتى ظهر الفراغ الحقيقي، ذلك الفراغ الذي لا تملؤه الكلمات ولا العزاء.

في تلك الليلة، انهارت إيمان كأنها استيقظت من الصدمة بشكل كامل.

خرجت إلى وسط المزرعة، تمشي بلا اتجاه واضح، كأنها تبحث عن شيء ضاع منها إلى الأبد. كانت الأرض باردة تحت قدميها، والظلام يبتلع المكان بصمت ثقيل، لكنها لم تشعر بشيء سوى ذلك الوجد الذي كان يخنق صدرها.

ثم صرخت فجأة.

صرخة خرجت من أعماقها، حادة ومكسورة، كأنها تحمل كل ما عجزت عن قوله منذ البداية.

"أبيي...!"

ارتد صوتها بين الأشجار، ثم تبعته وهي تبكي بانهيار:

"مصطفى...!"

وسام...!

لماذا تركتموني وحدي؟! "

كانت الكلمات تخرج ممزقة، مختنقة بالبكاء، بينما جسدها كله يرتجف كأن الألم أصبح أكبر من قدرتها على الاحتمال.

وفي الخلف، كانت مولودة تراقبها بعينين غارقتين بالدموع، عاجزة حتى عن الاقتراب منها. لم تكن تبكي فقط على مصطفى ووسام، بل على العائلة كلها، على السنوات التي انهارت في لحظة، وعلى البيت الذي لم يعد بيتًا بعد تلك الليلة.

ثم سقطت إيمان على الأرض، تقبض بيديها على التراب كأنها تحاول التمسك بما بقي منهم، وهي تردد بصوت مكسور:

"ارجعوا... أرجوكم ارجعوا..."

لكن المزرعة بقيت صامتة.

صامتة بشكل مرعب، كأنها تعرف أن الذين رحلوا... لن يعودوا أبدًا.

شهر واحد على رحيل مصطفى ووسام، ومع ذلك بدا وكأن البيت شاخ سنوات دفعة واحدة. كانت إيمان ومولودة تعيشان داخل حزن ثقيل لا يهدأ، حزن يملأ المزرعة بالصمت ويجعل كل زاوية فيها تذكّر بغياهما.

لم تعد الأيام تُقاس بالوقت، بل بالألم.

كل شيء داخل البيت كان يحمل أثرهما؛ الكرسي الذي كان يجلس عليه مصطفى، صوت وسام الذي ما يزال عالقا في الذاكرة، وحتى المزرعة نفسها بدت وكأنها فقدت روحها منذ تلك الليلة.

كانت مولودة تغرق في صمت طويل، بينما تحاول إيمان أن تبدو قوية، رغم أن الانكسار كان واضحًا في عينيها.

وفي وسط ذلك الحزن الذي لم يهدأ بعد، جاءت جميلة بقرار جديد.

لم تأتِ لتتحدث عن الفقد، ولا لتشاركهم ألمهم، بل جاءت وهي تحمل حديث الإرث والممتلكات، وكأن الموت لم يترك خلفه سوى الأوراق والنسب.

لقد لعب الحظ لصالحها بشكل لم يكن أحد يتوقعه.
فبعد رحيل مصطفى ووسام، أصبحت تملك النسبة
الأكبر من الممتلكات بحكم الإرث والكنية التي تجمعها
بهما، وكأن القدر دفع كل شيء فجأة إلى يدها.

ومنذ تلك اللحظة، بدأت جميلة ترى المزرعة بطريقة
مختلفة. لم تعد تراها بيتًا مليئًا بالذكريات، بل أرضًا يمكن
بيعها، وماضيًا يمكن إنهاؤه بصفقة واحدة.

ولهذا... قررت أن تباع كل شيء.

رفعت مولودة نظرها نحو جميلة، وكانت عيناها ممتلئتين
بحزن ثقيل أكثر من الغضب.

قالت بصوت مرتجف:

"هل نسيت ما فعله مصطفى لأجلك؟

أحزني عليه أولًا... ثم تحدثي عن البيع".

ساد الصمت للحظات، قبل أن تضيف بألم أكبر:

"لن يُباع شيء.

أنت تركت أباك غاضبًا منك حين رفضت أن تعطيه
الوكالة،

والآن تريد العودة فقط من أجل الإرث؟"

تنهدت مولودة بمرارة، ثم تابعت:

"لو تعلمين كم أكلت هذه المزرعة من عمرنا..."

أكلت عمري أنا، وأكلت عمر مصطفى أيضًا."

ثم نظرت حولها، كأنها ترى سنوات كاملة أمامها:

"لن أتركك تمحين أثره..."

رفعت جميلة رأسها ببرود وقالت:

"سأبيع... حتى ولو في المزاد".

ابتسمت مولودة ابتسامة حزينة ومتعبة، ثم قالت بهدوء
ثقيل:

"إدًا... لنترك القدر يفعل ما يشاء".

نظرت إليها النظرة الأخيرة بعينين ممتلئتين بالخدلان، ثم
قالت بصوت مرتجف اختلط فيه الغضب بالحزن:

"كان يجب عليّ أن أفهم منذ البداية أنك قاسية القلب..."

يوم رحلت مع رجل وتركت أملك تبكي اثنتي عشرة سنة
كاملة".

ثم تنهدت بألم، وكأن الكلمات تخرج من جرح قديم:

"كان يجب عليّ أن أفهم أنك خبيثة... وأن قلبك لا يعرف
الرحمة".

ارتفع صوتها أكثر، وبدأت دموعها تنزل رغم محاولتها التماسك:

"كان يجب عليّ أن أسمع كلام خالتي..."

وأن أمنع عنك هذا الإرث الذي لم يعد يهتمك فيه سوى المال... أنتِ وزوجكِ الحقود".

سكتت لحظة، ثم هزّت رأسها بحسرة:

"لكنني كنت الغبية..."

أنا من دافعت عنك، وأنا من اعتبرتكِ واحدة منا".

ثم نظرت إليها نظرة طويلة ومؤلمة قبل أن تقول:

"السخط عليكِ يا جميلة..."

لطالما اعتبرتكِ أختي... بل مثل ابنتي".

واختنق صوتها في النهاية وهي تهمس:

"السخط عليكِ".

رفعت مولودة يديها نحو السماء، ووجهها يرتجف من شدة القهر، ثم قالت بصوت مكسور:

"أنت يا الله الشاهد على كل شيء..."

يا أسفاه على العمر الذي ضاع..."

ثم التفتت حولها كأنها تخاطب المكان كله، وأضافت بحرقه:

"وأنتم يا أشجار المزرعة... تشهدون.

وأنت أيها البيت... تشهد على ما فعلناه من أجل هذه الفتاة".

كانت كلماتها تخرج كأنها وداع طويل لسنوات كاملة من التعب.

ثم اتجهت بخطوات بطيئة نحو باب المزرعة، وتوقفت قرب الأشجار التي عاشت معهم العمر كله، ومدّت يدها نحو جذع إحداها وهمست بألم:

"أنتم تعرفون... أنتم رأيتم كل شيء".

وبقيت للحظات واقفة هناك، كأنها تتحدث مع الأشجار أكثر مما تتحدث مع البشر، قبل أن تخرج أخيرًا من باب المزرعة وهي تحمل داخلها انكسارًا أكبر من قدرتها على الاحتمال.

أما في الداخل، فقد بقيت جميلة وزوجها وحدهما وسط المزرعة، يتبادلان النظرات والكلمات المنخفضة، وكأنهما بدأ بالفعل يخططان لما سيأتي بعد ذلك، بينما كان صدى كلمات مولودة ما يزال عالقًا في المكان كلجنة ثقيلة لا تغادره.

رحلت مولودة من المزرعة يومها وقلبها يحمل دمارًا أكبر من قدرتها على الاحتمال. كانت تمشي وكأن السنوات كلها سقطت فوق كتفيها دفعة واحدة، ولم تعد تعرف كيف يمكن للإنسان أن يعيش بعد كل هذا الفقد.

أما إيمان، فلم تعد قادرة على إكمال دراستها.

منذ مقتل مصطفى ووسام، تغير كل شيء داخلها، وأصبحت الذكريات تلاحقها في كل مكان، حتى صار البقاء في المدينة نفسها يشبه الاختناق. ولهذا قررت الرحيل، غادرت المدينة بصمت محاولة الهروب من الأماكن التي تحمل أصواتهم وذكرياتهم، لكنها كانت تكتشف في كل مرة أن الحزن يسافر معها أينما ذهبت.

وهكذا، بقيت مولودة مع ابنتها الكبرى وحدهما، تواجهان الصمت والحزن داخل بيت أصبح فارغًا بشكل مؤلم.

كانت الأيام تمر ببطء ثقيل، بينما جميلة تعيش في عالم آخر تمامًا.

لم تكن تفكر إلا في الإرث، فصارت تتنقل بين المحامين والوثائق، تبحث عن طريقة لتسريع بيع المزرعة والمنزل والسيارات، وكأنها تريد إنهاء كل شيء بأسرع وقت ممكن.

أما مولودة، فكانت ترفض فكرة البيع بشدة، ليس بسبب المال، بل لأنها كانت ترى في المزرعة عمرًا كاملاً لا يمكن تعويضه.

كانت تقف أحياناً أمام الأشجار بصمت طويل، تمرر يدها
فوق الجذوع القديمة وكأنها تواسيها، ثم تهمس بحزن:

"هنا ضاع عمرنا..."

هنا تعب مصطفى...

وهنا كبر كل شيء ثم انهار".

ولم تكن تخاف على الأرض بقدر ما كانت تخاف من
اختفاء أثرهم بالكامل، كأن بيع المزرعة يعني أن العائلة
نفسها ستمحى إلى الأبد.

انتقام القدر

بدأت المزرعة تتغير بطريقة غريبة، وكأن المكان نفسه لم يعد يتقبل وجود جميلة وزوجها داخله.

في البداية، ظنت جميلة أن الأمر مجرد توتر وضغط بسبب مشاكل الإرث والمحاكم، لكن ذلك الشعور الثقيل لم يكن يغادرها أبدًا. كانت تستيقظ في منتصف الليل على أصوات خطوات خافتة داخل البيت، وحين تفتح الباب لا تجد أحدًا، فقط الصمت البارد يملأ الممرات.

أما زوجها، فبدأ يفقد أعصابه يوميًا بعد يوم.

صار كثير الصراخ، سريع الغضب، وكأن المال الذي كان يطارده بدأ يتحول إلى عبء يخنقه من الداخل.

وكما اقتربا من إتمام إجراءات البيع، ظهرت مشكلة جديدة.

مرة تتعطل الأوراق، ومرة ينسحب المشتري في آخر لحظة، ومرة تظهر خلافات قانونية لم تكن في الحسبان، حتى بدا الأمر وكأن المزرعة نفسها ترفض أن تُباع.

أما مولودة، فكانت تراقب كل ذلك بصمت حزين، وتستعيد كلماتها القديمة:

"لنترك القدر يفعل ما يشاء".

وفي إحدى الليالي، وقفت جميلة وحدها وسط المزرعة، تنظر إلى الأشجار التي كانت تتحرك مع الريح بصوت مخيف. شعرت وقتها أن المكان لم يعد مجرد أرض أو بيت، بل ذاكرة ثقيلة مليئة بالغضب والحزن.

ولأول مرة منذ عودتها... شعرت بالخوف الحقيقي.

خوف من أن بعض الأشياء لا تسامح بسهولة،

وأن بعض البيوت تحتفظ بأصحابها حتى بعد موتهم،

وتنتقم بطريقتها الخاصة ممن حاول محو أثرهم.

بعد أشهر طويلة من الجري بين المحامين والأوراق، وصلت جميلة أخيراً إلى ما كانت تريده منذ البداية.

المزاد.

كانت تظن أن الأمر سيكون سهلاً، وأن الناس سيتسابقون لشراء المزرعة بما فيها من أرض واسعة ومنزل كبير.

لكن ما حدث يومها لم يكن كما تخيلت أبداً.

وقف الجميع في انتظار بداية المزاد، بينما كانت جميلة تحاول أن تبدو ثابتة، تخفي توترها خلف صمت بارد. أما زوجها، فكان يراقب المكان بعصبية واضحة، وكأنه ينتظر نهاية كل هذا التعب.

مرت الدقائق ببطء.

لكن أحدًا لم يتقدم.

لا أحد أراد شراء المزرعة.

كان الصمت أثقل من أي رفض مباشر، وكأن المكان نفسه أصبح يحمل شيئًا يخيف الناس منه، أو كأن الحزن الذي سكنه بعد مقتل مصطفى ووسام بقي عاليًا بين جدرانها حتى شعر به الجميع.

حاول المسؤول إعادة النداء مرة أخرى، ثم مرة ثالثة... لكن دون جدوى.

بقيت المقاعد شبه فارغة، والوجوه باردة، بينما بدأت ملامح جميلة تتغير شيئًا فشيئًا.

لم تستسلم جميلة بعد فشل المزاد الأول.

أقنعت نفسها أن الأمر مجرد صدفة، وأن البيع سيتحقق في المرة القادمة، لذلك أعادت المحاولة مرة ثانية... ثم ثالثة... ثم رابعة.

لكن النتيجة بقيت نفسها في كل مرة.

لا أحد يشتري.

كانت القاعات تمتلئ بالصمت أكثر مما تمتلئ بالناس، وكأن المزرعة أصبحت تحمل سمعة ثقيلة يخشاها

الجميع. حتى الذين كانوا يبدون اهتمامًا في البداية، كانوا يتراجعون في اللحظة الأخيرة دون سبب واضح.

ومع كل مزاد يفشل، كانت جميلة تفقد شيئًا من ثقتها، بينما يزداد توتر زوجها وغضبه.

أما مولودة، فكانت تراقب كل ذلك بصمت.

وفي مساء المزاد الرابع، عادت جميلة إلى المزرعة منهكة وغاضبة، ألقت الأوراق فوق الطاولة بعنف وهي تصرخ:

"لماذا لا يريد أحد شراء هذا المكان؟!"

لكن البيت بقي صامتًا.

صامتًا بشكل مخيف، كأنه يحتفظ داخل جدرانه بكل ما حدث، ويرفض أن يسلم نفسه بسهولة.

حينها فقط، بدأت جميلة تشعر أن الأمر لم يعد مجرد فشل بيع... بل شيء يشبه العقاب البطيء.

أما مولودة، فاكثفت بالهمس وهي تمرر يدها فوق جذع شجرة قديمة:

"بعض الأماكن لا تقبل الغرباء..."

حتى ولو كانوا من أهلها".

وفي النهاية، اتخذت جميلة قرار الرحيل.

عادت إلى إيطاليا بصمت، تاركة وراءها كل شيء معلقًا؛
القضايا، والأوراق، والمزرعة التي رفضت أن تُباع، والبيت
الذي بقي واقفًا كأنه يرفض أن ينسى أصحابه.

رحلت دون وداع حقيقي، وكأنها أرادت الهروب من المكان
أكثر من مغادرته.

أما مولودة، فحين سمعت خبر سفرها، لم تقل شيئًا
طويلاً، فقط نظرت نحو المزرعة وهمست بحزن متعب:

"حتى هي... لم تستطع البقاء هنا".

وبقيت الأشجار واقفة في مكانها، شاهدة على عائلة
مزقتها الخسارات، وعلى بيت ظل يحمل أسماء أصحابه
حتى بعد رحيل الجميع.

أما مولودة، فقد أنهكها الحزن مع مرور الوقت حتى
أصبحت طريحة الفراش، تقضي أيامها بين الصمت
والذكريات، وكأن جسدها لم يعد قادرًا على حمل كل ذلك
الألم المتراكم داخلها.

أما إيمان، فقد وجدت نفسها وحيدة في مواجهة الحياة،
تعمل داخل مصنع لساعات طويلة فقط لتستمر، بينما
كانت تحاول بصعوبة أن تخفي ذلك الخراب الذي تركته
السنوات داخلها.

وفي المقابل، بقيت المزرعة وحدها.

وحيدة تمامًا.

لم يعد أحد يعتني بالأشجار التي عاشت معهم العمر كله،
فبدأ العطش يلتهمها شيئًا فشيئًا حتى يبست أغصان
كثيرة منها، وكأن المكان نفسه بدأ يموت ببطء.

وهذه الأشجار التي ترينها يابسة اليوم... لم تقتلها
السنوات يا جميلة، بل قتلتها أفعالك.

أما البيت، فقد تحول مع الوقت إلى أطلال حزينة.

تشققت الجدران، وغطى الغبار الغرف التي كانت يومًا
مليئة بالحياة، ثم بدأت السرقة تصل إليه هو الآخر.

سُرقت أبوابه ونوافذه، وتسلسل الخراب إلى كل زاوية فيه،
حتى بدا كأن السنوات جاءت لتأخذ ما تبقى من أثر تلك
العائلة.

ولم يبقَ في النهاية سوى الصمت...

وصدى أسماء رحلت، بينما المكان كله ينهار معها شيئًا
فشيئًا.

الجدران لا تنسى

اختفت جميلة مرة أخرى، وكأن الأرض قد ابتلعها دون أثر. لم يعد أحد يعرف أين ذهبت، ولا كيف انتهى بها المطاف.

أما إيمان، فمنذ مقتل مصطفى ووسام، لم تستطع العودة إلى المزرعة مرة واحدة. كانت تهرب من المكان كما يهرب الإنسان من جرح يعرف أنه لن يشفى أبدًا. عشر سنوات كاملة مرّت وهي تحمل داخلها خوف العودة، لأن المزرعة بالنسبة لها لم تعد مجرد بيت، بل أصبحت الليلة الأخيرة، والصراخ الأخير، والصدمة التي حطمت حياتها كلها.

أما مولودة، فقد أصبحت منهكة، ينهش المرض جسدها كما نهش الحزن قلبها، وكانت تزور المزرعة أحيانًا رغم تعبها، كأن شيئًا خفيًا ما يزال يربط روحها بذلك المكان.

كانت تدخل البيت المهجور بخطوات بطيئة، تتحسس الجدران المتشققة بيديها المرتجفتين، ثم تهمس كأنها تحدث أشخاصًا ما يزالون يعيشون هناك:

"سامحوني... لم أستطع حماية شيء".

كانت تجلس طويلاً وسط الغبار والصمت، تتحدث مع الجدران أكثر مما تتحدث مع البشر، وكأن البيت وحده بقي يفهم وجعها بعد أن رحل الجميع.

وبعد عشر سنوات طويلة، عادت إيمان أخيراً.

نزلت من السيارة ببطء، ووقفت أمام المزرعة للحظات طويلة، غير قادرة على تصديق ما فعله الزمن بالمكان.

الأشجار التي كانت مليئة بالحياة يبست من العطش، وانحنت أغصانها كأنها شاخت هي الأخرى من الحزن.

النوافذ سُرقت، الأبواب اختفت، والجدران التي كانت تحفظ دفء العائلة أصبحت باردة ومتشققة كقبور مفتوحة على النسيان.

دخلت إيمان البيت بخطوات ثقيلة، وكل خطوة كانت تمزق شيئاً داخلها.

هنا كان مصطفى يجلس متعباً بعد يوم طويل، وهنا كانت وسام تضحك، وهنا كانت الحياة تبدو بسيطة قبل أن يحطمها القدر بهذه القسوة.

ثم وقفت وسط البيت أخيراً، ونظرت حولها بعينين غارقتين بالدموع، قبل أن تنهار وهي تلمس الجدار بيديها المرتجفتين:

"لو تعلم يا أبي مصطفى..."

ماذا فعل الزمن بنا بعدك.

وماذا فعلت جميلة بنا وبالمزرعة".

اختنق صوتها بالبكاء، ثم أكملت وكأنها تشكو للبيت نفسه:

"لم يمت البشر فقط...

حتى المكان مات معكم".

كانت تبكي بحرقة، كأنها تبكي عشر سنوات كاملة دفعة واحدة، بينما الصمت يبتلع صوتها داخل الجدران المهجورة.

ثم همست بانكسار موجه:

"لو تعلم يا أبي...

حتى الجدران بكت من شدة الغياب".

وفي تلك اللحظة، بدا البيت كله وكأنه يحمل حزن العائلة داخل جدرانها القديمة؛ حزنًا لم يرحل رغم مرور السنوات، بل بقي عالقًا في الأشجار اليابسة، وفي الغرف الفارغة، وفي الأبواب التي سُرقت، وكأن المكان كله يرفض أن ينسى من عاشوا فيه يومًا.

كان الخراب في كل زاوية، لكن أكثر ما أزعج إيمان لم يكن الدمار نفسه... بل ذلك الشعور بأن الزمن لا يقتل الناس

فقط، بل يلتهم آثارهم أيضًا، حتى يتحول الحب،
والضحك، والتعب، والذكريات، إلى صمت طويل لا
يسمعه أحد.

وفي النهاية، لم يبقَ من تلك العائلة سوى بيت مهجور،
وأشجار عطشى، وامرأة وبناتها أنهكهن الفقد، وذكريات
ثقيلة تتجول وحدها في المزرعة كأرواح لم تجد طريقها
إلى الرحيل.

النهاية

الكلمة الأخيرة

لم ينتصر أحد في هذه الحكاية.
رحل البعض،
وضاع البعض،
وبقي البعض يحمل ما تبقى من الذكريات.
أما الجدران،
فقد ظلت واقفة...
تحرس أسماء غاب أصحابها،
وتحفظ حكايات لم يعد هناك من يرويها.
لهذا بكت الجدران.



انضم إلى مجموعة دار بسمّة على واتساب، [من هنا](#)

تصفح إصدارات أخرى عبر مكتبة دار بسمّة، [من هنا](#)

دار بسمّة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمّة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا -في محاولة منا لتغذية شريان الثقافة- نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدرّكين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمّة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايين من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريباً لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعددة، والإشراف عليها مجاناً من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشر أعمالها بين القراء والمثقفين، وذلك تشجيعاً لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.



المحتويات



إهداء.....	6
مقدمة.....	7
مذكرات كرستيان.....	8
الرببية.....	23
على لسان مولودة.....	23
المزرعة.....	81
التبني.....	86
الميلاد الثاني لكرستيان.....	109
اعتناق الإسلام وأصبح اسمه مصطفى.....	109
تبني طفلة: وسام.....	115
الرسالة.....	138
حين عاد الغائب إلى عينيه.....	157
الغرفة التي لم تمت.....	172

180	 ما بعد الفرح
186	 رحيل زهراء
192	 الحقيقة التي فُتحت بعد الموت
203	 تمرد وسام من جديد
210	 يوم الإرث
231	 الجريمة
254	 انتقام القدر
260	 الجدران لا تنسى
264	 النهاية
264	 الكلمة الأخيرة





لم تكن المزرعة مجرد أرض تزرع أو بيتاً يأوي أهله،
بل كانت عالماً كاملاً يحمل بين جدرانهِ أسرار عائلة
مزقتها الخيانة وفرقها الزمن.

بين الغدر والفقد والحنين، تتشابك مصائر شخصيات
وجدت نفسها في مواجهة قرارات غيرت حياتها إلى
الأبد. ومع مرور السنوات، تبقى الذاكرة حية، شاهدة
على ما حدث، تماماً كما بقيت الجدران واقفة تروي
بصمت ما عجزت الكلمات عن قوله.

في هذه الرواية التراجيدية الواقعية، تأخذنا إيمان
القصيري في رحلة إنسانية مؤثرة عبر الحب والخسارة
والندم، لتؤكد أن بعض الأماكن لا تنسى، وأن بعض
الجراح لا يداويها الزمن.

لأن هناك حكايات لا تموت...

